الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي عابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ١٣٠ | الثلاثاء ٢٩ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٠ — ٢٤ من يونيه سنة ١٩٤١ | السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

صفحة من التاريخ

بقلم الأستاذ جاستون فييت

في مجلة القاهرة التي تصدر بالفرنسية

ترجمة الدكتور ف . حسني بك

وكان يدفعه إلى الاقتناع بهذا الرأي دوافع :

الأول أن قادة الرأي في فرنسا أخطأوا في الأعوام الأخيرة ، فحولوا ما كان في فرنسا من اختلاف ، بل حولوا الحرب نفسها إلى جهاد حول الرأي لا حول المنافع ، ووصلوا قضية الديمقراطية الدولية بما كانوا ينتظرون من انتصار فرنسا وانجلترا . وقد وقعت الهزيمة وخسرت الديمقراطية ، فيجب أن تدفع ثمن هذا كله . ويجب أن ترفض فرنسا هذه العقائد التي قادتها إلى الهلاك ، ويجب أن تذهب الجمهورية القائمة على تضليل الشعب ، ليحل محلها نظام يقوم على السلطان القوي ويحمي تقاليد فرنسا التي تتصل بالحرية الشخصية ، ولكنه يعتمد على المبادئ التي تستطيع وحدها أن تقيل فرنسا من عثرتها ، وهي مبادئ العمل والأسرة والوطن .

« وأول مرة رفع فيها المسيو بيير لافال النقاب عن مشروع السلطات المطلقة الذي عرض على الجمعية الوطنية كانت في بوردو ، حيث كان الوزراء يجتمعون في الصباح

والمساء تقريباً . فقد تحدث عن هذا المشروع على أنه طبيعي لا بد منه ، يعرفه الناس جميعاً ، ويتحدثون عنه ، ويقرءونه . على أنه لم يقل شيئاً دقيقاً ، ولم يطلب إليه أحد ذلك » .

فلما تم وضع المشروع في نيشي تحمل الاريشال ليعرض الأمر على مسيو لوران ، فكان ما أراد . ولكن لننظر كيف استشير مجلس الوزراء في شيء من الإهمال والازدراء ، إن صح هذا التعبير ، فقد قدم مسيو لافال نص المشروع في آخر الجلسة وقال :

« إني أعتذر لأني لا أستطيع أن آذن بالمناقشة في هذا الموضوع ، فهناك ستون من أعضاء مجلس الشيوخ ينتظرونني لأقدم إليهم بعض المعلومات وبعض الايضاح » .

« لم يقل أحد شيئاً » ، فيما يروي مسيو مونتيني ، ولكن لاحظ مسيو لوران من الغد أن مناقشة ما لم تثر حول هذا الموضوع ، وسأل أحد [illegible] مسيو لافال المحاربين القدماء الذين كانوا يشعرون بشيء من القلق ، ويطلبون شيئاً من الاطمئنان ؟ فلما أجيب على هذا السؤال بنعم وافق المجلس على المشروع . « وكذلك أخذ دستور سنة ١٨٧٥ في الاحتضار ، كأنّي مسموم من الراسم في طريقه إلى الاتلاف » .

وقد كان البادئ بهذا الاتلاف إذاً هو مسيو لافال ، ولكنه احتاج إلى جهد متصل ليصبح الاتلاف حقيقة واقعة ، كما قال مسيو مونتيني . وقد استمر يطعن على النظام القديم فيما يتصل بالسياسة الداخلية « فما دامت الديمقراطية البرلمانية قد أعلنت الحرب على النازية والفاشية ، وخسرت هذه الحرب ، فيجب أن تزول ، ويجب أن يقوم مقامها نظام جديد جرئ اجتماعي قوي » .

هذه هي الغاية التي كان يسعى إليها مسيو لافال ، فلننظر في الوسائل . ومن المعروف أن الدستور الجديد الذي كان يراد وضعه لفرنسا لم يكن يجب أن تقره الجمعية الوطنية ، وإنما كان يجب على هذه الجمعية أن تمنح الحكومة سلطات مطلقة لتتم في حرية كاملة ما يراد من الاصلاح . وكان مشروع القانون الذي يتألف من مادة واحدة قد صيغ في هذا النص :

« تخول الجمعية الوطنية حكومة الجمهورية الفرنسية التي تعمل باشراف الماريشال بيتان رئيس الوزراء وإمضائه السلطة الكاملة لتصدر في قانون واحد أو في قوانين متعددة الدستور الجديد للدولة الفرنسية ، ويجب أن يضمن هذا الدستور حقوق العمل والأسرة والوطن . ويجب أن تقره المجالس التي تنشأ بمقتضاه » .

وكانت الصعوبة في طريق ذلك هائلة ، فإن هذا المشروع لم يكن يطلب إلى الجمعية الوطنية أقل من أن تنتحر . ومن السهل أن نقدر المقاومة التي لم يكن بد من الاعتراض عليها . وكان هذا المشروع أيضا يطلب إلى البرلمان أن يحتمل مجبرة بهذه التضحية الهائلة تبعة الهزيمة والانهيار ، مع أن من المحقق أن بعض التبعات في هذا إنما كانت تقع على هيئات أخرى غيره ؟ وكان مسيو لافال في كل هذه المدة يطلع الماريشال على محاوراته ومفاوضاته مع من كان يحاورهم ويفاوضهم من أعضاء البرلمان .

وبلغ مسيو مونتيني في شيء كنا نحب ألا نعرفه ، وهو الاحتفاظ بالبرلمان القائم حتى يتم إنشاء المجالس التي تقوم مقامه بمقتضى الدستور الجديد ، والانتظار بانشاء المجالس الجديدة حتى يأتي اليوم الذي يستطيع الفرنسيون فيه أن يصبحوا أحراراً بعد أن تمضي معاهدة الصلح .

وكذلك استطاع مسيو لافال صاحب المشروع أن يقنع الماريشال بمشروعه ، وقد أصبح ممثلا له أمام البرلمان ، ثم هو استطاع بواسطة مفاوضاته أن يصبح

مثل البرلمان أمام الماريشال . ولم يذهب الماريشال قط إلى البرلمان ، وإنما كتب إلى المسيو لافال هذه الرسالة ليقرأها على الجمعية الوطنية :

« لما كان من العسير على أن أشارك في جلسات الجمعية فإني أرجو منك أن تمثلني فيها . ويظهر لي أن إقرار المشروع ضروري لسلامة البلاد » .

وقد تكلم الفرد في الجمعية الوطنية مسيو بوفان شاتيو بكلمات حكيمة يحسن تسجيلها . وكانت هذه الكلمات في الواقع مظاهرة أفلاطونية ولكن لها دلالتها . قال : « إني أودع دستور سنة ١٨٧٥ في غير حزن . فقد جعل من فرنسا بلداً حراً ، بلداً كان الناس يستطيعون أن يتنفسوا فيه مرتاحين ، وأن يجدوا لأنفسهم فيه القوة والمتعة في وقت واحد . وهذا الدستور يموت الآن ! ولا يأتيه الموت من النقص فيه بمقدار ما يأتيه من نقص الكفاية عند الذين قاموا على تنفيذه وتطبيقه ، بل من الممكن أن نتساءل : أليس يأتيه الآن لأنه لم ينفذ ؟ » (تصفيق) .

وقد ألقى مسيو لافال أمام الجمعية خطبة طويلة نجتزئ منها ببعض العبارات المهمة :

« إن أعظم الجرائم التي اقترفت في بلادنا منذ وقت طويل هي من غير شك إعلان الحرب ، وإعلانها من غير أن نستعد لها من الناحية العسكرية ومن ناحية السياسة الخارجية . . . وأخص ما أفسد النفس الفرنسية إنما هو الذهب الأجنبي . . . ويقول بعض الناس إن المشروع الذي تقدمه الحكومة ليس إلا استمراراً للنظام البرلماني . وأنا أعلن أن هذا ليس من الحق في شيء ، لأن هذا المشروع قضاء لا على النظام البرلماني وحده بل على عالم بأسره قد كان من قبل ولن يكون منذ اليوم » .

ويجب كذلك أن نسجل تدخل مسيو فلندان لأن النص الذي صدر عنه والذي سنثبته إنما هو تفصيل لكلمة من كلمات مسيو لافال . قال مسيو فلندان : « في هذه الأيام — ولا سيما منذ إمضاء الصلح الأخير — انتشر على هذه البلاد — وعلى بلاد أخرى أيضاً — ظل جديد هو ظل المال ، المال الذي أفسد كل شيء » .

هنالك اشتد النزاع بين الحكومة والمشارعين القدماء الذين كانوا قد قدموا مشروعاً معارضاً لمشروع الحكومة . وقد أعلن مسيو لافال أنه لا يقبل هذا المشروع ، ولكنه غير الجملة الأخيرة من مشروعه فأصبحت كما يأتي : « تقر الأمة الدستور الجديد وتنفذه المجالس التي تنشأ بمقتضاه » . ثم أقر المشروع بأغلبية ٥٦٩ ضد ثمانين وكان مجموع الأعضاء ٦٤٩ .

وكذلك يقرر مسيو مونتيني في عبارته الخطيرة أن الماريشال بيتان قد عاش مستخفياً أو كالمستخفي في الأيام الأولى التي تلت هذا الانقلاب . وكسب مسيو لافال على رغم ما كان يشعر به بعض الناس من الحزن ، وعلى عكس ما كان يشعر به بعض الناس من الأمل — قضية كان هو وحده الذي أثارها ، على رغم ما قدم له من النصح بالاحتياط ، وعلى رغم ما كان عند كثير من الناس من الشك وعند كثيرين آخرين من العداء .

وكذلك لا ندهش حين نرى أن القانون الدستوري الأول الذي يجعل الماريشال بيتان رئيس الدولة لم يكد يصدر حتى تبعه من الغد القانون الرابع الذي ينص على ما يأتي : « إذا حيل بيننا وبين النهوض بأعباء رئيس الدولة لأي سبب من الأسباب قبل أن تقر الأمة الدستور الجديد ، نهض مسيو لافال وكيل مجلس الوزراء بهذه الأعباء بحكم القانون » . وهذا الاختيار الاستثنائي الذي خص به مسيو لافال يجد ما يماثله في الدور الذي لعبه حين جعل نفسه في أوقات متقاربة وفي وقت

واحد أحياناً وصول الماريشال إلى البرلمان ووصول البرلمان إلى الماريشال ، كذلك يقول مسيو مونتيني .

بعد ذلك الوقت أقصي مسيو لافال من الحكم ، وكان معنى هذا الإقصاء كما يقول « الجورنال دي جنيف » أن الماريشال بيتان قد أنبأ العالم بأن مبدأ التعاون مع ألمانيا قد عدل عنه ، لأن مسيو لافال كان الممثل لهذا المبدأ ، فإقصاؤه دليل على العدول عن مبدئه .

وقد أثيرت مسائل قبيل أثناء المناقشات في الجمعية الوطنية ، فقد كان يراد أن يخفى الأمر ، وأن يخفى سريعاً . وسترى بواسطة مسألتين أخيرتين أن الصمت المطلق قد كان أنفع وأجدى . فمن الحقق أن نظاماً ما من نظم الحكم لا يثبت ثباتاً حسناً أمام الهزيمة . ولكن بعض الناس قدروا أن أغلاطاً قد ارتكبت ، ويجب أن يعاقب أصحابها ، وفي تحديد هذه الخطة التي لا تخلو من حرج يخشى مع الأسف أن يجد الا [illegible] النفوس . وقد دافع مسيو تيكسييه [illegible] من شهر يوليو في مجلس النواب عن اقتراح يقضي بأن تحقق التبعات العسكرية والادارية والسياسية التي أدت إلى الكارثة ويعاقب أصحابها . ولم تطل مناقشات المجلس في هذا الاقتراح يومئذ ، ولكنا نجد في تصريح المسيو رينو أمام الجمعية الوطنية — سنعرض له فيما بعد — الجملة الآتية : « ربما كان من الخير أن تؤجل البحث الرسمي عن التبعات إلى أن يأتي اليوم الذي يوجد فيه سلطان قوي لا يخيفه عدد المسئولين ومكانتهم ، هؤلاء المسئولون لا يوجدون بين أعضاء البرلمان وحدهم ، ولكنهم يوجدون في كل الادارات العامة ، وفي الجيش نفسه ؛ ولكن البحث عن التبعات لا يصح أن يؤجل إلى أمد بعيد » .

فمنذ اليوم يجب أن تظهر الخطط التي نشأت عنها هذه التبعات في الناحية التي تعنينا ، وهي ناحية السياسة ، وأن تظهر ذلك في انتظار البحث عن أصحاب هذه الخطط . ومعروف أن حكومة الماريشال بيتان قد أنشأت فيما بعد محكمة عليا لتكشف عن التبعات التي نشأت عن إعداد الحرب وإدارتها ، ولتعاقب أصحاب هذه التبعات . وفي الحق أن الموضوع خطير يستحق التساؤل ، فقد يظهر أن هنالك تسابقاً في نسيان الحقائق ، وتهالكاً على إرضاء الأحقاد القديمة . ومع ذلك فالأمر لا يتصل بالسياسة ، بل هو لا يتصل بالأفكار المجردة ؛ فقد وقعت كارثة ويجب أن يسأل عنها العسكريون . وقد أثير كثير من الجدل حول انتصار المارن بين أنصار جوفر وجاليني ، ولم يفكر أحد ما في أن يضيف فضل هذا الانتصار إلى البرلمان . ويجب على ربان السفينة أن يقدم إلى المحكمة البحرية [illegible] سفينته إذا غرقت مهما تكن الظروف . فنحن [illegible] غير أن على القائدين العامين أن يتكلما ، [illegible] أن يبرئا أنفسهما من التبعات ، [illegible] على أصحابها ، ولعلهما يستطيعان [illegible] هؤلاء المجرمين . ونود أن نثبت هنا وثيقتين تعطيان نبذة خطيرة من هذا الجدال ، فقد أعلن الماريشال بيتان في أحاديثه التي أذاعها الراديو : لقد كان ضعفنا في أدوات الحرب أشد خطراً من قلة رجالنا المحاربين . وأعلن في مكان آخر : إن فرقنا حاولت المقاومة على نهر الآين وعلى نهر السوم ، دون أن يكون عندها شيء من الدبابات تقريباً .

وقد نشر الجنرال دوبجان في مجلة العالمين في الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٩٣٦ مقالا عنوانه « الموقف العسكري في فرنسا » . ولا بد من ملاحظة هذا التاريخ ، فقد كان ليون بلوم رئيساً للحكومة منذ أربعة أشهر . وهذا المقال لا يظهر الجيش في حال تدعو إلى التفاؤل الشديد ، ولكنه بعيد كل البعد عن أن يصور حالة القلق والقنوط . فليس

هنالك شيء يجب إنشاؤه، لأن كل شيء موجود بالفعل. وقد بحثت القيادة واجبها فاستعدت، ولم تنتظر أوقات الخطر. وقد أعدت الخطط منذ وقت طويل. وقد أنفقت هيئة أركان الحرب كل ما كانت تملك من براعة ومهارة لدرس هذه الخطط، وبحثت في ذلك بحثاً صادقاً طويلاً مضنياً. ولكن إذا كان كل شيء موجوداً بالفعل فقد كان كل شيء في حاجة إلى الشكة ليتم التنظيم والاستعداد.

ثم يقول الجنرال ويجان مشيراً إلى التسليح: «إن الفاقد يشمل أجزاء كانت إلى اليوم تأتي الزيادة في نفقات الحرب قد تم الآن، ووافق على اعتمادات ضخمة للنفقات الحربية. وهذا شيء خليق بأن نغتبط به أشد الاغتباط. فهناك مهمة خطيرة سيمكن إتمامها، وقد أظهرت الحكومة رغبتها في أن تقوى معاملها الوطنية، وتجدد التجهيزات القديمة ... أما أدوات الحرب فقد قدمت الحكومة مشروع قانون يقضي بتقوية القطاع الوطني، وذلك بتحسين أدوات الحرب في البر والبحر والجو والاستكثار منها، وأول جزء من الاعتمادات المخصصة لهذا الغرض سيبلغ في ميزانية سنة ١٩٣٧ أربعة مليارات.

ثم يقول الجنرال ويجان: إنه من المهم أن يعلم الناس في داخل فرنسا وخارجها أن جيشنا قوي منظم مدرب، يشرف عليه في جميع طبقاته جماعة من خيرة الضباط والقواد. وأن لهذا الجيش من القادة على اختلاف طبقاتهم جماعة يمتازون بتجاربهم في الحرب، كما يمتازون بهذا العمل المتصل الذي تدفعهم إليه الحاجة إلى الاطلاع على ما يقتضيه العلم والفن في كل يوم من تطور أمور الحرب.

فالجيش الفرنسي هو الآن كأحسن ما يمكن أن يكون بالعدة التي تعلمه، والأموال التي ترصد للإنفاق عليه.

جاستون فيبيت

من إدارة «الثقـــافة»

إلى حضرات المشتركين

قررت إدارة الثقافة جعل فئات الاشتراك في المجلة عن النصف الثاني لسنة ١٩٤١ مطابقة لفئات النصف الأول.

وترجو الإدارة من حضرات المشتركين الذين يرغبون في استمرار اشتراكهم التفضل بإرسال قيمة الاشتراك عن النصف الثاني لهذه السنة إلى الإدارة قبل نهاية يونيه سنة ١٩٤١.

ملحوظة — يراجع جدول الاشتراك الذي ينشر باستمرار في المجلة

صورة جميلة في دمنة[١]

للأستاذ أحمد أمين بك

الشيخ يوسف الشربيني أديب مغمور، لم أر من ترجم له، احتقاراً لشأنه، وازدراء بتآليفه، لأنها تآليف شعبية، وليست تآليف أرستقراطية — وقديماً قَبّح العلماء الأدب الشعبي — ولأنه كذلك ماجن يصل أقصى حدود المجانة، لا يتحرج من استعمال كلمات الفحش عارية صريحة في غير كناية ولا إيماء، ولا يخضع لمواضعات الناس في الوقار والاحتشام، وإذا تزاحم في فكره كلمتان إحداهما مؤدبة والأخرى داعرة، اختار الثانية وهجر الأولى عن قصد وتعمد؛ فالقارئ المهذب يتقزز من قراءتها ويكره جرى كلماتها وتخشى نفسها؛ ولكنها مع ذلك تحوى صوراً جميلة، وربما كانت أصدق مما تعجز الكتب الأرستقراطية عن إظهارها وتصويرها.

بين أيدينا من كتبه كتاب اسمه «هز القحوف في شرح قصيدة أبي شادوف»، وقد ذكر في أثناء الكتاب أنه ألف كتباً أخرى، ولكني لم أرها.

ويدل هذا الكتاب على أن المؤلف من بلدة «شربين» قرب «المنصورة»، وأنه طلب العلم بالأزهر، وحضر على أستاذه الشيخ القليوبي الذي كان عالماً جليلاً كثير التأليف، ومات سنة ١٠٦٩ هـ، وأنه ألف هذا الكتاب بإشارة من الشيخ السندوبي، وكان من أكابر علماء الأزهر وأدبائه ومؤلفيه، ومات سنة ١٠٩٧ هـ.

فصاحبنا إذاً عاش في القرن الحادي عشر الهجري،

وقد حدثنا أنه حج سنة ١٠٧٤ هـ — ولم يتحرج من أن يذكر عن نفسه أنه كان منهمكاً يحب الغلمان وتتبعهم؛ ولست أدرى أكان ذلك حقيقة يذكرها أم مزاحاً يزعمه.

أما الصورة الحسناء التي يستطيع القارئ أن يخرج بها من هذه الدِّمَن، فهي وصف الفلاحين وبؤسهم في القرن الحادي عشر

قصيدة أبي شادوف هذه قصيدة عامية، لست أدرى من نظمها، ولعله هو ناظمها؛ وموضوعها فقر الفلاح وتعاسته، فجاء الشربيني هذا وشرحها في جزء كبير يقع في نحو ٢٣٠ صفحة كبيرة شرحاً هزلياً جدياً استطرادياً، فلا تأتي كلمة حتى يتلاعب بها، ويبين نحوها وصرفها واشتقاقها، وفي أثناء ذلك يذكر معلومات تاريخية طريفة تصور في جملتها الصورة التي أشرنا إليها.

يصف الفلاح وبؤسه، وطول معاشرته للبهائم، وحبه الطين والسباخ، وملازمته المحراث والجَرّافة، ودورانه حول الزرع والجُرْن، وجهله إلا بما يتصل بزراعته، كالساقية والنورج والحزام والنَّبّوت، وقد نشأ من هذا كله غلظ في ذوقه، فأفراحه وأعراسه ليست إلا صراخاً وصياحاً، ووِرْده عند الأسحار ليس إلا التفكر في الغنم والأبقار، و «حط القلف وهات الكلف»، وأسماؤهم دالة على ذوقهم، كعجيل وجعيجل، وزعيط ومعيط، وأسماء نسائهم شبارة وشرارة، وعليوه وحليوه، وحطيطة وعويطة، وأولادهم مكشوفو الرأس، غارقون في الأوساخ، وغذاؤهم جهل مركب وخلط في الدين، وقلة عقل، وأدبهم وأشعارهم وقصصهم من نوع سخيف، ونظم خسيس، وكنايات باردة، وخرافات باطلة.

وقد أطال في كل باب من هذه الأبواب، وذكر الشواهد والقصص والأمثال بإسهاب. والكتاب خصب جداً من الناحية الاجتماعية في هذا العصر، فهو يصور

(١) الدمنة: مستودع الأقذار في البيت، وفي الحديث: «إياكم وخضراء الدمن، وهي المرأة الحسناء في المنبت السوء».

لنا الفلاحين السذج ، وكيف يستقبلون إذا دخلوا القاهرة ، وكيف ينظرون إلى مشاهدها ومرافقها نظرة بلهاء ، وكيف يفسرونها تفسيراً مضحكاً ، ويقارن بين حياة المدن وحياة الريف ، وعلم المدن وجهل الريف ، وذوق المدن وذوق الريف ، في الأكل والشرب والملبس وما إلى ذلك .

ويصور لنا تصويراً رائعاً بؤس الفلاح عند تحصيل الأموال الأميرية ، فيصف مشكلة الشاكي ومصيبة المصائب ؛ فيقول إنه — دائماً — معرض للإهلاك من ضرب وحبس وفقدان لذة الأكل والشرب ، وهو دائم التفكير في المال الذي عليه آناء الليل وأطراف النهار . والمؤلف يحمد الله على أنه ليس له أرض ، ولا يشتغل بالفلاحة ، ويتمثل بقول اليوافي :

إذا ركب الفرسان على الجياد [illegible]

وقد شهدوا الجنود على [illegible]

ركبت أصيبعي ومشيت بمشي [illegible]

وصرت كغيرهم في كل واد

فلا الأجناد تطلبني بمال   ولا الديوان يغلط في مدادي

ويقص علينا أن النصراني (وهو الصراف) إذا حضر القرية أو الكاشف لأخذ المال ، كثر الخوف والحبس والضرب لمن لم يقدر على الدفع ؛ فمن الفلاحين من يقترض الدراهم بالربا أو يبيع زرعه أوان طلوعه بما ينقص من ثمنه في ذلك الزمن ، أو يبيع بهيمته التي يحلبها لعياله ، أو يرهن مصاغ زوجته أو يبيعه كرهاً ، وإن لم يجد شيئاً أعطى ابنه رهينة حتى يدفع ، وقد يحبس ويضرب حتى يدفع ، وقد يهرب ليلاً فلا يعود إلى بلده قط ، ويترك أهله ووطنه وعياله من هم المال وضيق المعيشة . ويروي لنا في ذلك أمثالاً مشهورة عندهم وهو : «مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم» و«يوم

البلد وغيره الخ/ ويصف لنا «السُّخْرة والعونة» وصفاً دقيقاً ، فالملتزم يأخذ القرية أو الكثير زرعه على حسابه ويسمى هذا «زرع الوسية» فإذا احتاج الأمر لتطهير الترع ، أو حفر القنوات ، أو نقل الطين ، أو ضم الزرع ، نادى الخفير : «يافلاحين العونة بإطاليس» فيخرجون في صبيحة اليوم جميعهم ويعملون ما يؤمرون به من غير أجر . وثم نظام آخر ، وهو أن يفرض على كل بيت عدد معين للعمل في العونة . فيقولون : يخرج من بيت فلان شخص ، وبيت فلان شخصان ، وهكذا ؛ وفي كلتا الحالتين من تأخر أو تكاسل أخذ «بالشدة» وعاقبه وضربه وغرمه دراهم معلومة ؛ ومن الناس من يختفي في القرى إذا نودي على العونة أو نحو ذلك .

وإذا نزل النصراني والشد والملتزم بلدة ما كلهم وشرعوا على الفلاحين يقسمونه عليهم ، ويسمى «زوبعة» [illegible] كل [illegible] حسب أرضه وقراريطه وأفدنته ، وربما رهنت المرأة شيئاً من «مصاغها» أو ملبوسها على دراهم ، واشترت بها الدجاج لطعامهم ، وربما حرمت أولادها الدجاج والسمن والدقيق وقدمته إلى هؤلاء . و«النصراني إذا نزل قرية لقبض مالها يحضر إليه الفلاحون ، ويكرمونه ويسلمون له الوجبة ، ويقفون بين يديه ، ويطيعون أمره ونهيه ، بل يكونون غالبهم في خدمته ؛ وبعض الملتزمين يولي النصراني أمر القرية فيحكم فيها بالضرب والحبس وغير ذلك . فلا يأتيه الفلاح إلا وهو يرتعد من شدة الخوف» .

وأما «الكاشف» فهو رئيس الاقليم ، وإذا أقبل على بلدة يقرع له الطبل ، فيخاف منه أهل البلد وأرباب المفاسد ، ويأتي إليه مشايخها ، ويقفون بين يديه في أشد ما يكون من الرعب والخوف ، ويستخبرهم عن أحوالهم . ثم بعد ذلك يسرعون له في الأكل والشرب والتقادم

في ما جرت به العادة ، وإذا وقع في قرية قتلة أو خرج أهلها من طاعة « أستاذهم » أو « قائم مقام القرية » هجم الكاشف عليهم بعساكره وأخرب القرية ، وقتل منهم من قتل ، وقد يحصل منه ومن أتباعه نهب القرية ، وتكليفهم في المأكل والمشرب فوق طاقتهم ؛ وفي ذلك يقول أبو شادوف من قصيدته :

« ومن نزلة الكشاف شابت عوارضي
وصار لقلبي لوعة ووجيف »

ويصور لنا أن أهل إقليمه ينقسمون قسمين : منهم من يتعصب لقبيلة سعد ، ومنهم من يتعصب لقبيلة حرام[1] فإذا ثار الشر نادى قوم : « يا لسعد » وآخرون : « يا لحرام » فيهيج سعد وحرام على البلد ، ويقع بينهم الحرب والعناد ، وتخرب بسببهم البلاد ، وتقطع الطريق على العدو والصديق ؛ وفي ذلك يقول الأديب في الأرجوزة التي لخص فيها كتابه :

فقد يصيح يا لسعد أو يا [illegible] ... وآخر [illegible]
فذاك الفلاح دون لبس ... [illegible]
يستعمرون الأرض بالغارات
ويصنعون القتل في الطرقات
وإن أتيتهم للقتال عسكر ... فروا إلى جبالهم واستتروا

وفي الكتاب صورة لنظر الفلاحين والمصريين إلى المماليك والأمراء الأتراك وأتباعهم ، فهي نظرة تعظيم وتبجيل وإعظام يبلغ حد التقديس ، فهم يتطلعون إلى معيشتهم ، ويتمنون لو استطاعوا أن يقلدوهم في شيء من تصرفاتهم ؛ فهذا فلاح ذهب يؤدي المال إلى الملتزم التركي ، فرأى كيف يعيش وكيف يعامل زوجته ، فلما عاد إلى بلده أراد أن يسلك مع زوجته أم معيكة سلوك الأمير مع زوجته الأميرة ، فانتهت بكارثة ؛ وهؤلاء الثلاثة من الفلاحين يريدون أن يزوروا مصر فقالوا : « إن مدينة مصر كلها حرامية وعسكر يتكلمون الروسي ، ونحن فلاحون إن لم نعمل عملهم ونطق معهم بالتركي وإلا قطعوا رءوسنا » . وتعاهدوا فيما تسامروا عليه أن يتعلموا بعض الألفاظ التركية ، ثم يدخلوا الحمام ، فإذا طالبهم صاحبه بالأجر صاحوا في وجهه بالكلمات التركية فأخلى سبيلهم ، وإذا رجعوا إلى بلدهم رطنوا بالتركي فظنهم مشايخ الكفر وأحكمهم وأعظمهم — إلى كثير من أمثال ذلك من الصور الأدبية .

والكتاب بعد ذلك معجم غير مرتب في بيان مصطلحات الفلاحين في ملابسهم وأنواع مأكولاتهم ومرافقهم ومواسمهم ، وكل ما يتصل بهم .

* * *

إذا أخذ عليه شيء فهو هذا التحجر للتشهير فيه ، [illegible] وأنه عرض لأمر الفلاح وبؤسه ، [illegible] لا عرض العاطف الراحم ، وكان أولى — وقد أدرك هذا البؤس الذي هو فيه ، والظلم الواقع عليه — أن يصرخ في وجه من ظلمه ، وأن يستغيث لانقاذه مما هو فيه ، وألا يزيد شماتته بالزراية به ، وألا يعيبه على ما وصل إليه اضطرارا ، بل يعيب من أنزله هذه المنزلة الوضيعة اختيارا ؛ فإن لم يستطع أن يعمل ذلك لقسوة الزمان وظلم الحكام ، فلا أقل من أن يلون صورته بالعطف الجميل على حاله ، والرثاء الباكي لبؤسه وشقائه .

وأخشى أن تكون الخطوط التي رسمها « الشربيني » لبيان الفواصل بين حياة المدن في نعيمها وترفها ، وحياة الريف في بؤسه وشقائه ، لا تزال حافظة لنسبتها إلى اليوم ؛ وقد مضى منذ تصويرها ثلاثة قرون ؛ بل أخشى أن تكون الفروق قد زادت ، والفواصل قد تباعدت ؛ فالمدنية الحديثة غزت المدن كثيرا ولم تغز الريف إلا

(1) من هؤلاء استمدت كلمة حرامي بمعنى لص .

قليلاً : هذه الكهرباء تفتق أضواءها في المدن ، والريف لم يتمتع بها ، ونظيف ! وهذه القصور الشامخة في المدن ، والحدائق الغناء ، والشوارع النظيفة ، والسيارات والترامات ، والكهارب الغاليات ، ودور التمثيل المختلفة الألوان ، ودور الملاهي المتعددة الأشكال ، إلى ما لا يحصى من ضروب الترف والنعيم ، والفلاح في مأكله ومشربه ومسكنه ونظام حياته ونوع أحاديثه ومجال عقله وعلاقته بأرضه وأدوات زرعه ، لم يختلف كثيراً عما كانت أيام الشربيني ، بل أيام عمرو بن العاص ، بل أيام رمسيس ، بل أيام منا أو منيس ؛ والأجيال المتعاقبة ، وميزانيات الدول المتعاقبة ، والحكومات المتعاقبة ، أهملتها المدن مزاولت في الإنفاق عليها ، ولم يصحبها الريف فضيقت عليه ؛ وعيب « الشربيني » أنه رأى بؤس الفلاح فنقم تبعته عليه ، ولم يدرك أن بؤسه نتيجة عوامل اجتماعية كثيرة ليس هو مسئولاً عن أكثرها ؛ فقد رأى الغضب ولم ير المنبع ، ورأى النار المشتعلة ولم ير من أشعلها ، ورأى النتيجة ولم ير مقدماتها .

فأما ناحيته الفنية فالشربيني إذا جد فهو أديب واسع الاطلاع في الأدب ، حافظ للشعر الكثير مستحضر له في مناسباته المختلفة ، قارئ الكثير من الكتب الأدبية والتاريخية المجهولة كانت في زمانه ، عارف بكتب المحاضرات والمسامرات ، مقتبس منها ، محكم لوضعها في مواضعها ؛ دارس لحالة الناس في عصره دراسة تفصيلية ، لا يستحي أن يضرب مثلا بنفسه وبما حدث له ، كما لا يستحي أن يروي عن أمه لتزاً في البرغوث ، ولا من المتناقشين أحاديثهم في مجالسهم على الطريقة التي سلكها الجاحظ في كتبه ؛ وإذا هزل فقلمه في الهزل غريب حقاً ، قيم حقاً ، لولا خشنه وفحشه ؛ له خيال واسع في المجون ، وقد هزأ النحو والصرف والاشتقاق بأسلوب جديد ، ولأسوق لك مثلاً في هذا عند تعريفه لكلمة « أبو » ، فهو يقول إنه « مشتق من آب إذا رجع ، قال ابن زريق :

ما آب من سفر إلا وأزعجه رأي إلى سفر بالعزم يزمعه

وكذلك الأب لأنه في كل ساعة يرجع إلى ولده ويتفقده وينظر إليه . . . . وقيل إن « أبو » فعل ماض ناقص ، وأصله « أبوس » ، ويدل على ذلك قول الشاعر :

قالوا حبيبك زارك تغره متلفاً

ماذا تحاول إن أبداه قال أبو

أي أبوس ، وإنما حذفت السين لقصد حصول الأنس على السامع ، إذ هو اللائق بهذا عند الأدباء ، والأقرب إلى السلامة من الواشين والرقباء ، وقيل لأن السين في الجمل ينتن ، والسترف في البوس إسراف عند النفس » إلخ .

وقوله في « مِنْدَرة » : « وهو إناء من فخار أحمر ، وهو مثل القرب ، وأصله مركب من فعلين مات ورد ، لأنه كان يعمل أولاً وكثر عملوا بدله فقالوا مات ثم رد ، ثم حذفوا الألف وجعلوها علماً ، وقيل إنه في الأصل عمل بمدينة تسمى ماترد التي ينسب إليها الشيخ الماتريدي نفعنا الله به » وهكذا .

فهو في هزله ، ولعبه بالنحو والاشتقاق ، واستطراده الغريب ، وخياله اللاحق البعيد ، من أوائل الكتاب الهزليين في الأدب المصري الحديث إن لم يكن رأسهم ، ثم تتقفو بعض الحلقات ، ويظهر بعد « أبو نضارة » في صحيفته ، والشيخ حسن الآلاتي في كتابه « ترويح النفوس ومضحك العبوس » ، ثم عبد الله النديم في صحيفة « الأستاذ » ثم « حمارة منيتي » ، ثم الكشكول ، ثم آخر ساعة ، فهي كلها مدرسة واحدة فكاهية متتابعة ، حليقة بالدرس اللطيف ، والبحث الطريف .

أحمد أمين

صور قضائية :

جريمة النصب

للأستاذ ع . ج

من أمتع القضايا التي تعرض على المحاكم الجنائية قضايا النصب . ذلك بما تنطوي عليه هذه القضايا عادة من الحيل التي تبهر العقول وتحير الألباب ، فإن « النصاب » الذي يستولي على نقود فريسته لا يتسلل في جنح الظلام فيختلس من متاع غريمه ما تصل إليه يده ، ولا هو يتحكك به في الطريق فينشل من جيبه ما عسى أن يكون فيه ، ولا هو يسطو عليه بقوته وسطوته فيكرهه على أداء ما يريد أن يأخذه منه . ولكنه وأذكى من كل ذلك ، يحصل من فريسته على ما يبغي من المال [illegible] ويقدم « المجني عليه » نقوده إلى « النصاب » طائعاً مختاراً . بل إنه في الأغلب الأعم يفعل ذلك وهو مقتنع كل الاقتناع بأنه « يستغفل » صاحبه ، وأنه بأداء هذا المال إليه إنما يلقي « طعماً » حقيراً سيجلب له — فيما بعد — غنماً كبيراً .

* * *

هذا المثل الآتي الذي يعطيك صورة نموذجية لما يفعله « النصاب » إذ يستولي على نفس غريمه ، فيوهمه أنه مقبل على صفقة رابحة ، ويهيج في نفسه عاطفة الطمع ، فيعميه عن حقيقة الفخ الذي أعده له . وتنقلب الأوضاع بين الطرفين ، فإذا صاحب المال يلح في عرض ماله إلحاحاً ، وإذا المحتال يتدلل ويتعفف ، ويتظاهر بأنه لا يقبل هذا المال إلا كارهاً . . .

* * *

شاب كان يسير مع خطيبته في جهة « الجزيرة » بمصر يوم من الأيام ، فأبصر في جانب الطريق الآخر رجلا يلبس ملابس أهل الريف ، وتسير بجواره امرأة عليها ثياب الفلاحات ، وتحمل فوق رأسها مكتلا تركت عليه حاجتان صغيرتان . فما إن حاذاه حتى رآه يشير إلى المرأة بكلمات ، ثم يتناول زجاجة مما في مكتلها ويتقدم بها إليه وهو يمشي على استحياء قائلا : إسمح يا أفندي ! . . .

ولأترك لهذا الأفندي أن يروي قصته كما سمعناها منه في الجلسة :

قال : فوقفت وقلت له : نعم !

قال ببساطة : حضرتك تعرف أفرنجي ؟

قلت : نعم !

قال : تسمح تخبرني إن كان هذا الدواء فيه خمر أم لا ؟

وقدم إلي زجاجة ملفوفة في ورق منقوش مما يستعمل عادة في الصيدليات . ففتحت الورقة فإذا فيها زجاجة من « كينا بسليري » التي يصفها الأطباء مقوية للمرضى في دور نقاهتهم ، والتي تحتوي فعلا على خليط من النبيذ والمركبات الحديدية . فقلت له :

— إن هذا الدواء مقو للبنية ، ولكنه يشتمل على مقدار من النبيذ !

فقال : هل يعتبر ذلك خمراً ؟

قلت : نعم ! إنه خمر ، ولكن حين يصفه الطبيب للعلاج يصبح دواء !

قال : يعني إذا تعاطيت منه يكون ذلك حراماً ؟

قلت : هذا يتوقف على سبب تعاطيك له ، فإن كنت تشربه بأمر الطبيب لمداواة جسمك لم يكن في الأمر حرمة ، أما إن كنت تتعاطاه على أنه خمر ، وأنت في غير حاجة إلى عقاقير ، كان ذلك حراماً ! فكيف — أولا — وصلت إليك هذه الزجاجة ؟

فسألني هو بدوره قائلا :

— وكم تساوي هي في نظرك ؟

قلت : إنها كانت تباع قبل الحرب بنحو ثلاثين قرشاً ، وما أظن ثمنها الآن إلا قد تضاعف !

قال : حقيقة الأمر أنى أنا رجل من الريف ، ولى قريب هنا يعمل فى إحدى الصيدليات ، وكنت كلما حضرت إلى القاهرة لأتداوى أو لأعرض نفسى على الطبيب ، حملت له معى مقداراً من البيض على سبيل الهدية إلى أن بلغ ما قدمته له حوالى سبعين بيضة . فرأى اليوم أن يكافئنى عليها بأن يقدم لى هذه الزجاجة ؛ وهو ينصح بأن أتناول منها كل يوم مقدار ملعقة كبيرة مع كل وجبة من وجبات الطعام لكى تفتح شهيتى وتقوينى . ولكنى سمعت من بعض الناس أن بها خمراً ، وأنا رجل لم أذق الخمر فى حياتى . فقلت أسترشد بمن يعرف الكتابة الافرنجية لعله يقرأ ما كتب عليها ويهدينى إلى حقيقتها . وما دام الأمر كما ذكرت ، فأنى سوف أتحرج من شربها . وحبذا لو وجدت من يأخذها منى ، لا بثمنها الغالى الفاحش ، ولا بثمنها الذى كانت تباع به قبل الحرب ، ولكن بثمن البيض الذى كنت أقدمه إلى صاحبى .

قال الشاب : فانتحيت بخطيبتى ناحية وتشاورنا معاً فى أمر شرائها منه بواقع قرش لكل سبع بيضات . وما دام يقول إنه قدم لصاحبه سبعين بيضة فلنعطه عشرة قروش ، ونحصل على زجاجة لا يقل ثمنها عن خمسين قرشاً . ورفضت خطيبتى فى أول الأمر قائلة : وما لنا ولهذه الزجاجة ما دمنا لا نحتاج إلى ما فيها لا على أنه خمر ولا على أنه دواء ! .

فقلت : إنها صفقة رابحة على كل حال . ولسنا نعدم فى المستقبل من يكون فى حاجة إليها من الأهل أو الأصدقاء ، فنعطيها له على أقل تقدير بثمنها المألوف فيكون ربحنا فيها ضعف ما دفعناه ثمناً لها .

وأحس الرجل بمداولاتنا . فتظاهر بأنه يريد أن يستردها ليبيعها لأية صيدلية أخرى ما دام ثمنها مقدراً ومعروفاً . فنظرت إلى خطيبتى نظرة عتاب أريد أن أقول لها : هلا وافقت من أول الأمر قبل أن يفطن هذا الساذج إلى حقيقة الهدية التى بين يديه ؟ فأشارت لى بيديها إشارة التسليم بما أريد .

فعدت إلى الرجل أقول له إنى سأكفيه مؤونة ما قد تحمل له هذه الزجاجة من إثم تناولى ما فيها ، وعرضت عليه قطعة من ذات العشرة القروش فى مقابل البيض الذى قدمه لقريبه . فقال : إن البيض يباع كل أربعة بقرش فيكون الثمن خمسة عشر قرشاً . ولكنى ساومته على أساس سعر البيض فى الريف ، فقبل أن يحاسبنى بواقع كل خمس بيضات بقرش ، وعند ذلك نقدته اثنى عشر قرشاً ، وانقلبت إلى خطيبتى مسروراً أفرك يدىّ من الرضا ، وأنا فخور بهذه الصفقة التى أوشكت وسوستها أن تضيعها منى ، والتى غلب فيها حزمى وعزمى على تشككها وترددها .

ولكنها عادت تقول لى : وما يدريك ؟ لعل الزجاجة مزيفة أو قديمة أو فاسدة . فكشفت لها عن سدادتها المحكمة ، وأطلعتها على توقيع صاحب المصنع يتوج هذه السدادة ويفصح بأبلغ بيان أن التمغة تمغة أصيلة — وأطلعتها على القيمة والسعر فقد أفهمتها أن النبيذ كلما طال عليه العهد تضاعفت قيمته دون أن يطرأ عليه ما قد يطرأ على غيره من الفساد . ثم شاءت أن تتزيد فى هذا الميدان — شأن كل بنات جنسها المكابرات ! — على الرغم من كل هذه الردود المفحمة التى أسعفنى بها خاطرى الحاضر . وقالت : إنك على كل حال لم تزد على أنك اشتريت مالاً مسروقاً . فإن خادم الصيدلية الذى أخذ البيض لنفسه كان يتعين عليه أن يدفع ثمنه من ماله الخاص لا من مال الصيدلى الذى يخدمه ! .

وظللنا على هذا الحال نتبادل الاعتراضات والردود إلى أن انتهت نزهتنا وعدنا — بغير سلام . وكان أول شئ صنعته عقب عودتى إلى منزلى أنى عمدت إلى الزجاجة ففتحتها . فإذا فيها — ولعنة الله على ذلك الفلاح الخبيث ! — ماء ملون لا طعم له ولا رائحة ! وإذا بى قد دفعت اثنى عشر قرشاً لأشترى زجاجة ثمنها نصف قرش ! وإذا بهذا الريفى المتساذج محتال بارع ! وإذا بى أنا الرجل

النصر — الذى يقرأ الخط الأفرنجى ! — يقع فريسة لمن لا يعرف كيف يقرأ الخط العربى ! وكان أقسى ما أحسست به إزاء هذه النتيجة أن خطيبتى هى التى فازت فى وجهة النظر التى اتخذتها بشأن هذه الصفقة ! وأنى كنت أنا الخاسر فيها من كل النواحى !.

* * *

فهذه الصورة التى قدمتها بين يدى القارئ، تريه أن جريمة النصب لا تتم — عادة — إلا إذا توفر لها عنصران : الأول — هو تلك القصة الأنيقة المسبوكة التى يصدقها المجنى عليه فيخطو بذلك خطوته الأولى نحو الشرك الذى نُصب له ؛ وهذا العنصر من عناصر الجريمة هو أمتعها وأروعها ، لأن لكل « نصاب » قصة ، ولكل واقعة ظروفها التى توحى إلى المحتال فكرته . انظر إلى المثل الذى سقناه ، وأن هذه الجريمة لم تكن لتتم إلا فى مكان مثل « الجزيرة » . ولم يكن يمكن أن يكون ضحيتها إلا مثل هذا الشاب الذى وقع عليه اختيار المحتال ؛ لأن الأحجية التى اختلقها النصاب أداة لنصبه مفروض فيها أنها تسلية ، وأصلح ما تكون البيئة لعرض مثل هذه التسلية حين يجتمع رجل وامرأة فى مكان مثل الجزيرة ومثاليها ؛ فهناك الهوى والشباب . . . . والشيطان أيضاً فى بعض الأحايين ! ولم يكتف المحتال بهيأته وبلهجته ليقنع ضحيته بصدق روايته ، ولكنه جاء بالقرائن الخارجية التى تؤيد دعواه وتعزز صدقه . فهناك زوجته الزنجية أيضاً ، وهناك مكتلها الذى يطبعها بطابع أهل الريف ، وفوق هذا المكتل الحمامتان الصغيرتان اللتان تطلان من رأسها ، وقع العنوان من الكتاب ، وتعملان بوجودهما على تلافى التنافر بين بعض الريف وبين الزجاجة التى يحملها الرجل فى يده . ويقف الضحية أمام كل هذه الشواهد كما يقف المتفرج فى قاعة التمثيل حين يرى المناظر ، ومن خلفهم الستائر التى تلائم الحوادث المعروضة ، ليتم بذلك تأثير العرض فى نفسه ، ويبلغ انفعاله بالتمثيل وبأقوال الممثلين أقصى حدوده !

فهذا هو العنصر الأول الذى لا تتم جريمة النصب إلا به . وهناك العنصر الثانى وهو العمل على شل تفكير المجنى عليه ، وتوجيهه وجهة تصرفه عن التفطن إلى حقيقة ما يراد به . وذلك بلمس نقطة الضعف فيه ، وبإثارة عاطفة الطمع عنده ؛ فيكون العنصر الأول بمثابة (الغماء) الذى يوضع على أعين الثور قبل ربطه إلى الساقية . ويكون العنصر الثانى بمثابة (السوط) الذى يرتفع فوق ظهره ! ومتى توفر هذان العنصران لم يبق أمام الثور إلا أن يدور ويدور حتى يشبع رغبة سائقه من الماء الذى يلقيه تحت قدميه !

* * *

ولقد عرضت علىّ مئات من قضايا النصب ، واطلعت فى كل قضية على حبكتها التى ألجمت عقل المجنى عليه ، وسيطرت على تفكيره . وأعجبت بكل قصة من هذه القصص ، وراعنى فى كل قضية مبلغ ما ينطوى عليه عمل المحتال من فطنة وسلامة تدبير ، أكثر مما كان يروعنى مبلغ ما ينطوى عليه عمل المجنى عليه من غفلة وتفريط . ولكنى ما زلت أحتفظ لإحدى هذه القضايا بمنزلتها على أنها الأولى بين أخواتها . ذلك بأن المتهم فيها كان شخصية وقورة لها قيمتها ، واعتبارها فى هذه البلاد . ولأن المجنى عليه كان موظفاً كبيراً ، ومن أسرة شهيرة ؛ ولأن المبلغ الذى استولى عليه « المتهم » كان عدة آلاف من الجنيهات أخذها على عدة دفع ، وفى مدى عدة شهور . ولأن الصدمة التى أصابت « المجنى عليه » بعد أن تفتحت عيناه آخر الأمر على حقيقة الواقع ، كانت من الشدة بحيث أصيب على أثرها بذبحة صدرية قضت على حياته !

وأرجو أن أحدث قريباً عن تفاصيل هذه القضية فى كلمة أخرى إن شاء الله .

ع . ج

صور من تاريخ الفلسفة :

ديكارت وتأويلات فلسفته

للأستاذ عثمان أمين

ما المبدأ الذي قامت عليه فلسفة ديكارت ؟ وما عسى أن يكون مقصده منها ؟

اختلف الفلاسفة والشراح في تحديد ذلك ، وكان اختلافهم مثاراً لتفسيرات كثيرة حملت عليها الفلسفة الديكارتية ، منذ أيام ديكارت نفسه حتى عصرنا هذا ؛ فنحن نعلم أن معاصري الفيلسوف ، وتلاميذه المباشرين ، وأنصار مدرسته وخصومها على السواء ، لم يكونوا دائماً متفقين في فهمهم لمذهب الأستاذ . وحسبنا الإشارة هنا إلى ما هو مشهور من اختلاف في تأويل تلك الفلسفة ، سواء عند كبار الديكارتيين أمثال « مالبرانش » و « سبينوزا » و « ليبنتز » ، أو عند صغارهم أمثال « جولنكس » و « كلوبرج » و « دولافورج » و « رجيس » . والمذهب الديكارتي على نحو ما تأوله « الكردينال دوبيرول » و « بوسويه » اللذان يلتمسان عند ديكارت دعائم عقلية للعقيدة المسيحية ، هو مذهب لا يشارك في شيء المذهب الديكارتي ، على نحو ما فهمه مفكرو القرن الثامن عشر ، الذين لم يقرأوا مؤلفات ديكارت ، ولم يعيدوا طبع « المقال عن المنهج » مرة واحدة ، ولكنهم نظروا إلى ديكارت — على حد قول « فونتنل » — « منهجاً جديداً في الاستدلال هو أعظم قيمة من فلسفته التي لو (طبقنا عليها) القواعد التي علمنا هو إياها ، لوجدنا شطراً كبيراً منها أخطاء لا يقين فيها »(1) .

وفي أيامنا هذه نجد من الباحثين ، حتى ممن لا يرتابون في صدق إيمان ديكارت ، من يرون أن في فكر ذلك الفيلسوف جزءين منفصلين انفصالاً مقصوداً ، وأنهما ناشئان عنده من إلهامين متباينين ؛ فإذا كان لا بد من التوفيق بينهما فلن يتيسر ذلك في نظر الكثيرين ، إلا إذا جعلنا الميتافيزيقا في فلسفة ديكارت تابعة للطبيعيات (الفيزيقا) ، وضرورة ذلك أن الله عند ديكارت هو الضامن لحقيقة العلم ، والوسيلة التي تكفل للإنسان الانتصار على الطبيعة والسيطرة على العالم المادي .

* * *

ولا بد على كل حال من الإقرار بأن مذهب ديكارت وشخصيته ليسا من الأمور السهلة التي تسهل الإحاطة بها في فصل أو فصول . فإن ذلك المذهب — خلافاً لما ظن البعض زمناً طويلاً — لم يخلقه صاحبه من العدم ؛ إذ يكاد لا يوجد شيء مما قال به ديكارت في الميتافيزيقا ، بل وفي العلم [illegible] قال به قائل قبله . ولقد أصبح من الثابت أن ديكارت استخدم في تشييد مذهبه عناصر ومواد مختلفة . ومن المؤكد أيضاً أن مشاغل الفيلسوف العقلية وأغراضه لم تكن دائماً واحدة متسقة ، وإنما اختلفت باختلاف الزمان والمكان ، والظروف التي أحاطت به ، والأشخاص الذين اتصل بهم . وهذا هو الذي جعل بعض تلك المشاغل والمقاصد تبدو تارة وسائل ، وتارة غايات ، وطوراً أموراً فرعية ، وأخرى أموراً هامة تحتل مكان الصدارة ، وهو الذي جعل الكثيرين يرون في فكر ديكارت ثنائية تميزه عما عداه ..

وبعد هذا كله يجد الباحثون في شخصية ديكارت الأخلاقية تعقيداً يبدو من العسير رده إلى الوحدة ، ويجعل من « الفيلسوف المقنع » — كما وصفه أحد الباحثين المعاصرين — شخصاً غريباً ، وكأن حقيقته لغز من الألغاز . صورت لنا الأساطير ديكارت في صورة

(1) « فونتنل » : (استطراد عن القدماء والمحدثين) .

فيلسوف رياضي ، مقتنع بقناع العقل ، مترفع عن مخالطة الناس ، متباعد عن التأثر بما يساور حياتهم . . . ولكن هذه الصورة التي يكاد يفرضها العرف والتقاليد الموروثة عن الفيلسوف الفرنسي ، ليست مع ذلك مطابقة لصورة أخرى يعرفها الباحثون عن صاحب كتابي «الخطرات الخاصة» و «انفعالات النفس» وصاحب الرسائل إلى الأميرة «اليزابث» وصديق «كلرسلييه» و «مرسن» و «شانو» ، ولا هي مطابقة لصورة الرجل الذي ترك لنا عنه «بابيه» و «فيليبج» صوراً صادقة حية رائعة .

* * *

ولعل من الطريف النافع — قبل أن نبسط نظريات الفلسفة الديكارتية — أن نتطرق إلى مختلف الصور التي تبدت لمؤرخي الفلسفة الحديثة ممثلة لحياة ديكارت العقلية .

من مؤرخي فلسفة ديكارت الأستاذ «شارل آدام» الذي ذهب إلى تصوير أبي الفلسفة الحديثة في صورة ممثل المذهب العقلي في الفلسفة (راسيوناليزم) والمتحرر من قيود الدين المسيحي[1] . وقد كان «ف . بوييه» قد نحا هذا المنحى حين جعل من ديكارت «أبا الثورة الفرنسية ، وفيلسوفاً انتصرت بفلسفته أهلية البحث الحر وتأيد بها سلطان العقل»[2] . ويظهر أن هذه الصورة عن ديكارت زعيم النزعة العقلية هي التي عرفها عنه القرن الثامن عشر[3] ؛ ولكن الفلسفة الديكارتية امتدت أثناء ذلك — بفضل «فونتنل» — إلى ميدان السياسة والدين ، وكان ديكارت قد حرص على أن يستبعدهما من فلسفته استبعاداً صريحاً .

* * *

(١) شارل آدام : «حياة ديكارت ومصنفاته» ، م ١٢ ص ٤٢ ، ٦٤ ، ٣٣٦ ، ٥٥٢ .

(٢) ف . بوييه : «تاريخ الثورة الديكارتية والفلسفة» ، باريس سنة ١٨٤٢ ص ٩٢ .

(٣) ومن الباحثين في فلسفة ديكارت «الأب لابرتونيير» ورأيه أن المذهب الديكارتي قد حرفه ديكارت نفسه ، وكان ذا نية في جعله من مطالب عقلية خالصة . ومن أجل هذا احتاط ديكارت من أن يتسرب إلى فلسفته أي عنصر ليس مصدره الحدس العقلي الخالص .

ونشأت من صورة ديكارت صاحب المذهب العقلي صورة أخرى : رأى بعض الباحثين أن ديكارت في الحقيقة عالم طبيعي ، وأن اشتغاله بالميتافيزيقا لم يجيء إلا عرضاً . ومن الذاهبين هذا المذهب «ليار»[1] الذي قرر في كتابه عن ديكارت أن الميتافيزيقا في الفلسفة الديكارتية تابعة للطبيعيات ناشئة عنها . وكتاب «ليار» هذا واضح في الدلالة على ما قلنا ، فإنه يبوبه هكذا : (١) المنهج (٢) العلم (٣) الميتافيزيقا .

ولقد نال هذا التأويل قسطاً كبيراً من النجاح : فإن مصنفات «شارل آدام»[2] ومحاضرات «إتي بورو»[3] ودراسات «لابرتونيير»[4] ومباحث «ج . ماريتان»[5] تذهب كلها إلى أن ديكارت إنما استخدم الميتافيزيقا من أجل العلم الطبيعي ، وأن العلم الطبيعي هو أعز الموضوعات لديه .

* * *

لكن كثيرين من الباحثين قد صوروا ديكارت في صورة أخرى ؛ فيرى «إسبيناس»[6] أن ديكارت العالم

(١) ا . ليار : «ديكارت» ، باريس سنة ١٨٨٢ ، الطبعة الثالثة سنة ١٩١١ ص ٩٢ — ١٠٦ .

(٢) شارل آدام : نص المكاتبات ، م ١٢ ص ٣٧٠ .

(٣) محاضرات «إتي بورو» . عن ديكارت بالسربون سنة ١٩٠٥ — ١٩٠٦ ولم تنشر . وقد أشار إليها الأستاذ «جلسون» . في رسالته «الحرية عند ديكارت وعلم اللاهوت» باريس ١٩١٣ ص ٩٢ هامش (٢) .

(٤) لابرتونيير : «دراسات عن ديكارت» . مجلدان . باريس ١٩٣٥ م ١ ص ١٢٦ — ١٣٣ . ويرى «لابرتونيير» أن أهم ما في الطبيعيات الديكارتية ليس هو انحيازها في المنهج ، وإنما هو كونها علماً ذا أثر فعال يستطيع أن يجعل الإنسان سيداً للطبيعة ، وأن يحقق ما كان يحلم به «روجر بيكون» والمشتغلون بصنعة الكيمياء التي كان يبحث فيها عن الحجر الفلسفي الذي يطيل الحياة . فكان ديكارت يريد أن يصل إلى أن يتم عن طريق العلم ، ما زعم من قبله أن يحققوه من طريق السحر .

(٥) ج . ماريتان : «روح ديكارت» . في مجلة «الرسائل» . عدد أول أبريل وأول مارس سنة ١٩٢٢ .

(٦) ا . إسبيناس : «الفكرة الأصلية في فلسفة ديكارت» في مجلة «الميتافيزيقا والأخلاق» . سنة ١٩٠٢ .

الطبيعي لا يخلو من أن يكون هو أيضاً ديكارت نصير الدين ، الذي تتلمذ أولاً على اليسوعيين واعتنق مبادئهم ، والذي كان يحلم بالتوحيد من دين الله ، والذي اتصل بالكردينال « دوبيرول » ، وتأثر بالآراء الأفلاطونية الحديثة التي اعتنقها الكردينال وجماعة « الأوراتوار » ، والذي نراه بعد ذلك يلتمس عند هيأة علماء السربون تأييداً لكتابه « التأملات » . ويذهب إلى هذا الرأي من ديكارت « بلانشيه »[1] ، ولكن مع شيء التلطيف . أما « جوهييه » فينسب إلى ديكارت شعوراً واضحاً عما لفلسفته من رسالة دينية[2] ، في حين أن « ماكسيم لروا » ينكر أن يكون ديكارت من المؤمنين المخلصين[3] .

ومن مؤرخي الفلسفة الديكارتية من حاول أن يوفق بين الرأيين : الرأي الذاهب إلى أن ديكارت عالم طبيعي قبل كل شيء ، والرأي القائل بأن الأصل في فلسفته هو الدفاع عن الدين . يقرر « لوى دعبيه » بأن فيلسوفنا قد أراد الأمرين جميعاً : أراد أن يقيم العلم على أساس يقيني ، كما أراد أن يخدم الدين . ويورد « لوى دعبيه » من حياة الفيلسوف الشواهد التي تؤيد صدق إيمانه الكاثوليكي ، ثم هو يقابل بين ميتافيزيقا ديكارت وبين مذهب وحدة الوجود عند الإيطاليين ، وبين تشكك الملحدين[4] .

ومن مؤرخي ديكارت أيضاً الأستاذ « جاك شفاليه » الذي أبان خير إبانة عن مكانة الفكر الديني من فلسفة ديكارت ، وبين أن الشك المنهجي إنما يقصر عن أن يتناول العقيدة[5] . ومن أجل هذا استطاع ديكارت

(١) ل . بلانشيه : « الفلسفات التاريخية لبداءة : أفكر ، فأنا إذاً موجود » باريس سنة ١٩٢٠ ص ٧٢ إلخ .

(٢) هـ . جوهييه : « الفكر الديني لديكارت » . باريس ١٩٢٤ .

(٣) ماكسيم لروا : « ديكارت الفيلسوف المقنع » . باريس سنة ١٩٢٩ .

(٤) ل . دعبيه : « ديكارت » . باريس سنة ١٩٢٧ . الفصل الأول .

(٥) ج . شفاليه : « ديكارت » . باريس سنة ١٩٢١ . ص ٢٠٦ إلخ .

— دون أن يناقض نفسه — أن يستبقي اعتقاده في الحقائق الدينية مع طرح معارفه الأخرى . وكذلك رأى « شفاليه » أن الله هو مركز الفلسفة في الفكر الديكارتي ، فقد قال ديكارت : « من جهل الله فقد عجز من أن يكون له معرفة يقينية بأي شيء آخر »[6] .

* * *

ولقد وصف بعض الكتاب المحدثين ما لاحظه من ازدواج الشخصية في حياة ديكارت العقلية[7] ، فبينما يجد فيه مفكراً ذا عبقرية رياضية ظاهرة ، مع شغف بالآراء الواضحة المتميزة ، يجد فيه من جهة أخرى رجلاً كاثوليكياً عنيفاً ، متمسكاً بالعقائد الدينية التقليدية . ويرى هذا الكاتب أن ديكارت ما دام بإزاء مشكلات ذات صبغة علمية خالصة — لاسيما مشكلات الرياضيات البحتة أو الطبيعية — فهو كمن يسير في مكان أنيس مألوف لديه ، ولكنه ما يكاد يعرض لمسائل ذات اتجاه فلسفي أو خلقي حتى نجده قد أقبل عليها إقبال عالم اللاهوت التقليدي لا إقبال الفيلسوف المجدد أو المفكر الثائر . وبينا نجده يصرح بأننا ينبغي أن لا نقبل منهجاً غير الحدس والاستنباط ، نجده يعلن بأن « هذا لا يمنعنا من أن نؤمن بالأشياء التي جاءتنا من طريق الوحي الإلهي ، وأن نعتقد أنها أشد معارفنا وثوقاً وأوفرها يقيناً ، ما دام الإيمان بهذه الأمور . . . فعلاً لا من أفعال الذهن ، بل من أفعال الإرادة » . فديكارت إذاً يجمد هنا من مجال الفلسفة العقلية ، ويرجع إلى لاهوت القرون الوسطى .

* * *

لكن قامت في ألمانيا أواخر القرن الثامن عشر شيعة الحركة « الابتداعية » . (الرومانتزم) في الفلسفة ،

(٦) ديكارت « مبادئ » ك ١ ف ١٣ .

(٧) راجع « دائرة المعارف البريطانية » . مقال عن « ديكارت » .

دراسات أدبية :

شاعر من البيت الأيوبي

يموت في سن الشباب

مات نجم الدين أيوب ليلة الثلاثاء سابع عشري ذي الحجة سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وترك من الإناث اثنتين ، هما : ست الشام وربيعة خاتون ، ومن الذكور ستة وهم : الملك الناصر يوسف صلاح الدين ، وهو البطل المعروف مؤسس الدولة الأيوبية ، والملك العادل سيف الدين أبو بكر ، وشمس الدولة توران شاه — وهو أكبرهم — وشاهنشاه ، وسيف الإسلام طغتكين ، وتاج الملوك بوري وهو أصغرهم .

وقد كان لكل واحد من هؤلاء الذكور شأن أي شأن في التاريخ ، فأسس صلاح الدين دولة شملت مصر والشام والنوبة والمغرب واليمن ، وخلف العادل أولاد صلاح الدين وحكم هذه الإمبراطورية (٥٩٦ — ٦١٥) ، وفتح ثالثهم توران شاه اليمن وحكمها (٥٦٩ — ٥٧٧) ، وخلفه في ولاية اليمن — بعد موته — أخوه طغتكين (٥٧٧ — ٥٩٣) . أما شاهنشاه فكان من قواد نور الدين ، وقتله الفرنج سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة « لما كانوا منازلين دمشق »[1] .

وحديثنا اليوم عن أصغر هؤلاء الإخوة الأمجاد تاج الملوك بوري بن أيوب .

ولد بوري في ذي الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة ، ونشأ في كنف الدولة النورية ، وفي رعاية أب وإخوة كلهم رجال حرب ونضال ، فلا عجب أن ترعرع شابا موفور الصحة ، كامل النشاط ، شجاعاً ، مقداما ، طموحاً للمجد ، وكان إلى هذا « مليح الأعطاف ، عذب العبارة ، حلو الفكاهة ، مليح الرمي بالقوس ، والطعن بالرمح ، شجاعاً ، باسلا ، مقداماً على الأهوال ، وكان قد جمع إلى ذلك الكرم ، والتفنن في الأدب »[2] .

(١) مخطوط الخزرجي في مناقب بني أيوب ص ١١ أ ، وهو مخطوط مجهول المؤلف ومنه صور شمسية بمكتبة الجامعة المصرية [illegible]

(٢) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ .

وعلى رأسها « شيلنج » و « هيجل » . فكانت ترى في ديكارت فيلسوفاً ميتافيزيقياً محضاً . أما « فكتور كوزان » وشيعة مذهب التخير (الاكلكتيكيون) ، فكانوا يرون في « أبي الفلسفة الحديثة » ، شيخ « الروحانية » الأصيلة ، غير أنهم كانوا يأسفون لأن « شيطان الرياضيات قد أغواه » — كما يقولون !

وفي النصف الثاني للقرن التاسع عشر ، أخذ الباحثون يرجعون إلى نصوص المؤلفات الديكارتية وعمدوا إلى تأويلها : فرأى « سكرتان » في ديكارت نصيراً للحرية المطلقة[1] ، ورأى فيه « ناتورب » مشيداً لبناء « المثالية » (الايدياليزم) الحديثة[1] . وأخيراً جاء « هاملان » فأعاد في تصوير الميتافيزيقا ومكانها في الفلسفة الديكارتية ، وبين أن النظر الميتافيزيقي عند ديكارت إنما يسبق النظر الطبيعي وأن ذلك السبق عقلي وزمني معاً[2] .

عثمان أمين

(١) سكرتان : « فلسفة الحرية » . باريس سنة ١٨٤٩ .

(١) ناتورب : « نظرية ديكارت في المعرفة . دراسة في التاريخ السابق على نظرية النقد » . ماربورج سنة ١٨٨٢ — ناتورب : « تطور فكر ديكارت منذ « القواعد » حتى « التأملات » . في مجلة « الميتافيزيقا والأخلاق » باريس ١٨٩٦ ص ٤١٦ .

(٢) هاملان : « مذهب ديكارت » . الطبعة الثانية . باريس سنة ١٩٢١ .

ويتفق مؤرخو الدولة الأيوبية جميعاً على مدح تاج الملوك ، ونعته بصفات السجايا الجليلة وكثير غيرها . والحقيقة أنه كان أحد أرباب السيف والقلم ، ولو قدر له أن يمتد به العمر لبذ إخوته وأبناء عمومته ؛ فقد كان بطلاً صنديداً وشاعراً ممتازاً ؛ ولكنه لقي حتفه ولما يتم الثالثة والعشرين من عمره ، بعد أن أصيب في حومة الوغى ، وبعد أن ترك للقراء العربية ديواناً يضم ما قاله من شعر تغلب عليه العاطفة الجامحة الحلقة ؛ ولا غرو فقد نظم شعره هذا وهو في ميعة الصبا وريعان الشباب .

حدث نزاع بين صلاح الدين وعماد الدين زنكي — ابن سيده نور الدين — وتحصن عماد الدين بقلاع حلب ، وأكثر من الجند ، ورام مقاتلة صلاح الدين ؛ ولكن السلطان الأيوبي كان صاحباً للجميل ، ودار في نفسه أنه يستطيع الاستيلاء على حلب دون قتال ، « ولكن الشباب وجهال الأصحاب [illegible] القتال [illegible] النزال ، وتقدموا وأقدموا ، والسلطان يلومهم [illegible] وكان فيهم تاج الملوك بوري أخو السلطان [illegible] في نظمه »[1] .

فمن هذا يتبين أن تاج الملوك كانت تدفعه حماسة الشباب وفورته إلى الاقدام والمخاطرة ؛ بل لقد كان دائماً في مقدمة الجيش إذا حارب ، وإلى القارئ وصف القاضي الفاضل لبوري وشجاعته من كتاب له :

« نزلنا تل خالد يوم الثلاثاء ثاني عشر المحرم ، وكان قد تقدمنا الأجل تاج الملوك إليها وأناخ عليها ، وقاتلها وقاتلها ، وطالبها ولو شاء لنازلها »[2] .

وبعد الاستيلاء على تل خالد تقدمت الجنود الأيوبية وفي مقدمتها تاج الملوك نحو حلب ، ونزلوا خارجها في سادس عشري المحرم سنة ٥٧٩ ، وفي نفس اليوم أصيب في ركبته إصابة خطرة .

ولما أحاطت جند صلاح الدين بحلب تحقق عماد الدين أنه ليس له قبل بها ، وسفر بينه وبين صلاح الدين الأمير حسام الدين طمان ، فاتفقا على أن تسلم حلب السلطان على أن يعطى عماد الدين سنجار . وأعد صلاح الدين وليمة لابن زنكي ، وبينما هما في سرور والجند حولهما يأكلون ما لذ وطاب ، ويتبادلون الشهي من الحديث ، إذ حضر أحد الحجاب فأسر إلى صلاح الدين خبر وفاة أخيه تاج الملوك متأثراً بالجرح الذي أصابه ، فلم يزد صلاح الدين على أن قطب وجهه ، ثم بش ثانية وعاد إلى ما كان عليه . ولم « يتغير لذلك ولا اضطرب ، ولا انقطع عما كان عليه من البشاشة والفرح ، وحل الاحسان وأمر [illegible] ، و[illegible] عليه إلى الظهر ، وكظم حزنه ، وأخفى رزيته ، وصبر على مصيبته ، ولم يزل على طلاقته وبشاشته إلى وقت العصر »[1] . فانفض الجمع وتفرق الجند ، وانفرد صلاح الدين بخاصته ، واسترجع الحادث ، وبكى حزناً على أخيه [illegible] الذي كان داعماً عند ملاقاة الخطوب ، [illegible] الأرزاء [illegible] حقاً صبوراً بطلاً كظيماً لألمه وحزنه ليُسر الغير ويسعدهم .

هذا هو صلاح الدين تربيه أخلاق الملوك ، وهذا هو أخوه بوري الجندي والقائد . أما بوري الشاعر فقد ترك للقراء العربية ديواناً فياضاً بالعواطف (هذا الديوان مفقود الآن) فنلتمس كتب التاريخ التي ترجمت له بعض أبياته ؛ ومن دراستها نستطيع أن نحكم أنه كان شاعراً فذاً ، موفور الذكاء ، فياض الشعور ، خفاق القلب ، عذب اللفظ ، حلو الحديث ، محباً يجيد وصف ما يحس من ألم البعد ولوعة الصد ؛ وكان بوري أيضاً يحب مصر وغيد مصر ، ويفضل نيلها وماءه على الفرات ومائه ، إذ يقول :

شربت من الفرات ونيل مصر
أحب إلى من ماء الفرات

---

(1) الروضتين ج ٢ ص ٤٢ .
(2) نفس المرجع والصفحة .

(1) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ ، والنفاء ص ١٤ .

ولى فى مصر من أهوى وإليه ... ومن فى قربه أبداً حياتى
فقلت وقد ذكرت زمان وصلى ... تلاقى بعده روح الحياة
أرى ما أشتهيه يفر منى ... وما لا أشتهيه إلىّ يأتى (١)

وأكثر ما يقول بورى فى الغزل ، فمن قوله :

يا هذه وأمانى النفس قربكم ... يا ليتها بلغت منكم أمانيها
إن كانت العين مذ فارقتكم نظرت
إلى سواكم فخانتها أماقيها (٢)

ويقول عنه صاحب الشفاء هذين البيتين ، ويعلق عليهما بقوله : « وإنه عليه سامحه الله » :

يا غزالاً نبت طوراً ويحيى ... وهو رق السقام سقم الصحيح
هذه المعجزات ليست لظبى ... إنما هذه فعال عيسى المسيح (٣)

وقريب من هذا المعنى ويزيد عليه وصفه للحبيب قوله :

يا حبيبى حين يرضى ... وحبيبى حين يسخط
آه من ورد على خديك ... بالمسك منقط
بين أجفانك سلطان ... على ضعفى [illegible]
قد تصبرت وإن بر ... ح بى الشوق [illegible]
فلعل الدهر يوماً ... بالتلاقى منك يغلط (٤)

وقد كان للحياة الجندية التى عاشها بورى أثر بالغ فى شعره ، فهو يكثر من استعمال ألفاظ الحرب كالسيف والعضب والرمح والطعن والضرب ، ومن ذلك قوله :

أيا حامل الرمح الشبيه بقده
ويا شاهراً سيفاً حكى لحظه عضبا
ضع الرمح واغمد ما سللت فربما
قتلت وما حاولت طعناً ولا ضربا (٥)

وقوله :

بليت بمن لا يعرف العطف قلبه
ولا يسمع الشكوى لمن كان شاكيا
من الترك مياس القوام كأنه
يجرد لى لحظاً من السيف ماضيا
يعاندنى فيه الزمان تعمداً
فيا عجباً ما للزمان وما ليا
يخالفنى فى كل شىء أريده
فلا القلب مسروراً ولا العيش صافيا
فلولا شقائى ما بليت بحالتى
بهودى ولا صافيت من لا صفا ليا
وإنى لأستشفى من الموت بالردى
وحسبك داء أن ترى الموت شافيا (١)

ويذكر أنه قال هذه الأبيات قبيل موته ، وإن صاحب الشفاء يعقب عليها بقوله : « وكان فألاً عليه »
[illegible] ركوب الخيل مع تاج الملوك [illegible] وقلبه فى [illegible] رأى أحد مماليكه مقبلاً من ناحية الغرب وهو راكب فرساً أشهب فقال :

أقبل من أعشقه راكبا ... من جانب الغرب على أشهب
فقلت : سبحانك يا ذا العلا !
أشرقت الشمس من المغرب (٢)

ومات بورى كما ذكرنا ثالث عشرى صفر سنة ٥٧٩ هـ عن اثنين وعشرين سنة وأيام ، وبكاه صلاح الدين بعد انتهاء المقتل وهو يقول : « ما وقت حلب بثمرة من أخى تاج الملوك بورى » وكان يقول أيضاً : « ما أخذنا حلب رخيصة » (٣) ، وأمر به فغسل ودفن بمقام إبراهيم بظاهر حلب . ثم حمل بعد ذلك إلى دمشق ودفنه بها .

جمال الدين الشيال

(١) الشفاء ص ١٢ ا .
(٢) الروضتين ج ٢ ص ٤٤ .
(٣) الشفاء ص ١٢ ا .
(٤) ابن خلكان ، الوفيات ، طبعة [illegible] ج ٢ ص ٨٩ .
(٥) الشفاء ص ١٣ ا ، وابن خلكان المرجع السابق نفس الصفحة .

(١) الشفاء ص ١٢ ب .
(٢) ابن خلكان ، المرجع السابق ص ٨٨ .
(٣) الشفاء ص ١١ ا وابن خلكان ص ٨١ وأبو المحاسن النجوم ج ٦ ص ٩٥ .

لوم التاريخ :

عبد القادر حمزة باشا

بقلم الأستاذ محمد السوادي

لفقيد مصر والشرق ، والصحافة والأدب ، والمروءة والاسلام ، عبد القادر حمزة باشا ، جوانب وضاءة ، من حق بعضها أن تظهر « الثقافة » عليه .

و « الثقافة » إحدى مجلتين رفعتا لواء الثقافة ، فمن حقها أن نخصها ببعض ما نقدر عليه من هذه الدراسات .

عناصر التفوق فيه

وليس بالكشف الجديد تفوق الفقيد في رياضة المنطق في كل ما كتب ، وليست هذه الرياضة هي كل ما أعنيه حين أتحدث عنه من ناحية الأدب ، فهذا النوع المنطقي عرفه قراء مصر والشرق ، من خلال مقالاته الصحفية ونضاله السياسي ، بحيث يصبح من تحصيل الحاصل التدليل على وجود موجود ، كشف وعرف ، ثم ذاع واشتهر .

أما الذي أعنيه فإظهار عناصر التفوق المنطقي في نشأة الفقيد ، واستخدامه هذه العناصر في دراساته التاريخية والأدبية ، ونتائج هذا الاستخدام من حيث التوفيق الذي أحله محله الرفيع بين رجال الفكر ، والتدليل على هذا كله بالنهج التطبيقي مما كتب ولم يشأ القدر أن يمد له في الأجل حتى ينشره على الناس .

فما عناصر التفوق في الرجل من حيث المنطق وقضاياه التي طبقها فساقتك إلى الاقتناع بالنتائج التي كان يحصل عليها ، ولو خالفت رأياً لك ، أو ميلاً منك ، أو عاطفة فيك .

عندي أن هذه العناصر يمكن ذكرها فيما يلي ، أو يمكن ردها إلى ما يأتي :

أولاً — تكوينه الأصلي وما امتاز به من السلامة في الأعصاب ، ومن التفكير قبل التعبير .

ثانياً — تبكيره بالتفكير الدائم ، وكان لا يزال طالباً في القسم الثانوي ، واقتناعه يومئذ بأن بلاده في حاجة إلى جهود شبابها ، وإقدامه على هدى هذا التفكير لقاء الزعيم الشاب مصطفى كامل ، وإعلانه بعد هذا اللقاء بأن الشباب لا يحول دون الجهاد ، واهتداؤه بالتجارب إلى التوفيق في النتائج ، كلما اتجه إليها عن ميل وعلى ضوء مقدمات بريئة من الأخطاء .

ثالثاً — نشأته وأخذه فيها بأسباب الأناقة والنظام .

رابعاً — اشتغاله بالمحاماة عن رغبة فيها مما مكن له من كسب القضايا بسلاح الترتيب المنطقي .

خامساً — نجاحه — بسلاح المنطق وحده — في معارك ما كان يقوى على كسبها حزب كامل ، ونجاحه — بسلاح المنطق والعناصر الأربعة الفائتة — في وضع كتابه التاريخي الأخير .

هذه هي العناصر الخمسة التي ارتفعت بالفقيد إلى مرتبة الفارس في حومة المنطق ، والتي أحلته في الأذهان محلاً أتاح لاسمه أن يقترن — متى ذكر — بفكرة هذه الفراسة أو الرياضة في الجدل الهادئ الذي يشبع العقل ويرغم العاطفة .

فلنتناول هذه العناصر بالبسط ، لنلمس آثارها في تكوين الفقيد ، غير مكتفين ببعض الطرائف التي يحب القراء أن يلموا بها في دراسات العظماء ، والتي أعتبرها أدلة حاسمة في إثبات هذا الأمر .

العنصر الأول

رجعت في بحثي موضوع الأعصاب وسلامتها ، والتفكير وعلويته ، إلى نشأة الفقيد الأولى ، فعلمت من أسرته ورفاقه الراوي : ذلك أن الفقيد كان كثير الحلم ، هادئ الأعصاب سليم التفكير ، حريصاً على مظهر الوقار ، متحاشياً من المزح الذي يخشى أن يلازمه الصغار ، من بداية النشأة ، وفي خلال الفتوة ، وفي أيام التلمذة ، فلما ثبتت

من هذه الصفات في تلك السن ، خيل إلي أن للوراثة دوراً لا بد أن تكون قد لعبته ، فمددت البحث إلى ما قبل مولد الفقيد ، فلم يخب ظني ، وتثبت من أن والده — محمد بك عبد القادر حمزة ، وكان باشكاتباً لمديرية البحيرة — كان له نفس الصفات ، وكان يضرب بحلمه المثل ؛ ولكنه كان يختلف عن الفقيد في النقيض ، أي في حالة الغضب إذا غضب ؛ فالفقيد كان إذا غضب غضبة كبرى ، لم يبد لها أثر على صفحة وجهه إلا إذا اعتبرت تلاشي ابتسامته أثراً . أما والده فكان إذا غضب ثار ثورة هائلة . ولما كانت مقتضيات النضال لم تجد علاج الظهور إلا بعد اشتغال الفقيد بالنضال السياسي الذي سبقه التفكير في الصالح العام فيبدو أن كثرة التجارب التي خضته بامتحانها الشقي وحرج المهمة التي ألقتها الأقدار على عاتقه هي التي راضته على ألا يظهر ما ينطوي عليه الشارع من الغضب إلا في الوقت الملائم ؛ لأن رجلاً مثله اختار السياسة مجالاً له في بلد محتل ، تتعارض فيه التيارات والأغراض ، ويتاح فيه قدر محدود من الحرية ، لا يستطيع الاستمرار إلا مع رباطة خاصة ، ولا سلاح لهذه الرباطة غير إخفاء ما يجدر بالسياسي إخفاؤه . . ويبدو أيضاً أن الفقيد لا بد أن يكون قد جرب إظهار الغضب في غير أوانه فلم يوفق ، وجرب إظهاره في أوانه فوفق ؛ فكان الـ ١ + ١ = ٢ على التحقيق والـ ١ — ١ لا يساوي شيئاً على التحقيق ؛ فكان هذا التفكير فيه بداية لتشبثه بالقضايا المنطقية .

العنصر الثاني

وقد قلت إن التفكير عنده بدأ في وقت مبكر ، وأحسب أن قراء « الأهرام » القراء لا بد أن يكونوا قد طالعوا الكلمة السريعة التي رثى بها الأستاذ أحمد حافظ عوض بك فقيدنا ، فعرفوا منها كيف ذهب معه — وكانا تلميذين — إلى مصطفى كامل ، ومن هذه الزيارة بدأ الفقيد يزاول الذود عن الصالح العام .

في هذه الناحية كان القراء يرقبون المزيد من الصحفي الكبير حافظ بك ، بل من مؤرخ « فتح مصر الحديث » ، ولا يزال القراء يأملون أن يحدثهم الأستاذ الجليل — أطال الله حياته — حديث عبد القادر حمزة الطالب الذي كان لا يطيب له غير أن يقاسم بعض زملائه كل ما يبعث به والده عليه من نفقات غير قليلة ومن غير النفقات ، وأن يحدثهم الأستاذ الجليل حديث عبد القادر حمزة الوطني الصغير في ذلك الحين ، وكيف كان يفكر في هدوء ويحسن التفكير ، ثم ينفذ في جرأة الرجل الجسور ، شأن العظيم أو الكبير ، وأن يحدثهم الأستاذ الجليل حديث عبد القادر حمزة في يسره وفي عسره ، وفي مختلف أدوار حياته السياسية والصحفية ، ليرى الناس حقائق الرجل الذي فقدوه ، وكيف نشأ منطقياً سليم التفكير ، ورجلاً يواجه الصعاب بسلامة الأعصاب .

العنصر الثالث

والعنصر الثالث — حديث الأناقة والنظام — لا يزال أيضاً في حاجة إلى المزيد من ذكريات حافظ عوض بك ؛ فالذي عرفته من محقق أن الفقيد كان في صدر شبابه كما ظل طوال حياته أنيقاً تناسقت أناقته ، ومحباً للنظام والنظافة ، وتم الخلق معتدل القامة جميل الطلعة وقور الحركة ، كان كذلك فتى وشاباً ، وكان كذلك طالباً ومحامياً ، وصحفياً وسياسياً . وكان معنياً بوضع كتبه في أماكنها نظيفة سليمة ، وباختيار ملابسه في توفيق بين الأناقة والاحتشام ، وبإعطاء الدرس وقته ، والتفكير في صالح بلاده وقته ، بغير خلط بين هذا وهذا ؛ حتى ليذكر زملاؤه — وخاصة الطالبين اللذين لازماه زمالة وصداقة وإقامة ، إبراهيم أبو العز (باشا الآن) وأحمد حافظ عوض (بك الآن) — أن الفقيد كان في الترتيب أول مدرسته في جميع مراحل دراسته . فحدث مرة أن أعلنت النتيجة في إحدى سني دراسة الحقوق فكان الثاني ،

فبكى بحرقة ، وكان بكاؤه لأول مرة فيما يذكر إخوانه .
فلماذا بكى ؟

في الجواب عن هذا السؤال دليل حاسم على سلامة المنطق عند الفقيد من أيام المدرسة . بكى لأنه بذل جهداً يؤهله لأن يكون — كما كان دائماً — أول الطلاب ، وأجاب إجابات تؤهله لأن يكون « الأول » أيضاً ، فإعلانه بأنه الثاني نتيجة ظالمة وغير مستقيمة مع مقدمات استذكاره ومقدمات جهوده .

هكذا قال الطالب عبد القادر حمزة ، فكان منطقياً .. حتى في بكائه وفي ساعة غضبه ، ولعله أن يكون قد عاد ففكر في أن البكاء لا يجعل من « الثاني » « أول » ، ولم يصلح وسيلة لرفع ظلم وقع .. فلم يعد إلى دفع الظلم أو التاعب بالبكاء أبداً .

وقد لازمه تشبثه بالنظام والأناة في كل أطوار حياته . وسنرى في فصل آخر من أدبه وسياسته وتاريخه كيف أفاد من هذا النظام في البحث عن التاريخ ، ولا سيما القديم منها طلباً يرجع إليه في بحوثه ودرسه وأبحاثه في إدراك النتائج بريئة من الأخطاء .

العنصر الرابع

أما فترة اشتغاله بالمحاماة فقد هيأتها له الأقدار تمهيداً للرسالة وتمكيناً لحسن أدائها . فالمحاماة تقوم على استخلاص النتائج الواضحة من المقدمات الغامضة ، وبين غموض هذه ووضوح تلك ميدان فسيح يصول فيه المحامي البارع ويجول ، لإثبات البراءة ولإظهار الصواب في كل ما يكتب أو يقول ، وقد صال عبد القادر حمزة وجال ، وهاك بعض البيان :

كان للفقيد ثلاثة مكاتب : أولها في الإسكندرية بشارع محطة مصر ، وثانيها في دمنهور بشارع المديرية ، وثالثها في إيتاي البارود بشارع المحطة ، ولم يكد يمضي عليه في المحاماة زمن قصير حتى عرف القضاء في عبد القادر الشاب محامياً متزناً هادئ الصوت قوي الحجة ، لا يسرف في دفاعه تهوراً ، ولا في حركاته تهريجاً ، وعرفوا أن الإصغاء إلى المقدمات التي يبسطها ، والتحليل الذي يأخذ به ، والنتائج التي يخرج بها ، تدع القضية المعقدة وقد انحلت عقدها ، والمشكلة الغامضة وقد غمرها نور .. ونور كثير !

ومن هنا جاءت أرباحه المضاعفة فأرباحه الثابتة ، حتى قال أقرباؤه : إن دخله كان يحسب بالآلاف ولا يعرف العشرات من الجنيهات في كل شهر .

بيد أن الفقيد أبرز في المحاماة ميزة كبرى لها أثرها في بحثنا وراء قوة منطقه .. تلك هي ما يسمونه في عالم القضايا بـ « المذكرات » . فكان القضاء إذا أمر بتقديم « مذكرات » في قضية من القضايا التي وكل فيها الفقيد ، أجمع المحامون وكل ذي صلة بأصحاب القضية أنها « محسومة » .. وكان الحكم يحقق دائماً ما توقعوه .

وهذه الملاحظة هي دليلنا الحاسم الثاني ، فالفقيد إذا ما أملى ما يرتبه وكتب .. فلا لغو ولا زهو .. ولا تهريج ولا تجريح .. وإنما هو المنطق يأخذ بعضه برقاب بعض ، في تماسك وسلامة وإشراق .. وينتهي إلى النتيجة في سهولة وبساطة ووضوح .. ولعل هذا الحادث في تاريخه يلقي عليك كل الضوء ، وأنت تدرس منطقه بعد أن أصبح كاتباً ، وواجه النضال السياسي والخصومة الحزبية .

العنصر الخامس

أما العنصر الخامس وهو نجاحه — بسلاح المنطق وحده — في المعارك التي خاضها ، ونجاحه — بسلاح المنطق ، والعناصر الأربعة التي أشرنا إليها — في وضع كتابه التاريخي الأخير « على هامش تاريخ مصر القديم » ، فأدعه لحلقات بحوثي الآتية :

فإلى لقاء قريب في ساحة الخلود الفكري حيث أواصل الحديث عن الفقيد الحبيب .

محمد السوادي

من مآسي الحياة :

اليتيمـــة

رآها تسير بقوامها الممشوق ووجهها الصبوح ، فجذبه حسنها ، وتعقبها من مسلك إلى مسلك ، حتى رآها وقد عرجت على متجر فابتاعت ما أرادت ، وقفلت راجعة لا تلوي على شيء ، حتى دخلت إلى دار يبدو على ساكنيها اليسار .

فدفعته إحساسات خفية إلى استطلاع أمرها ، فتقدم إلى البواب محييًا ، ونفحه ببعض المال لقاء ما وقف عليه من معلومات عن الفتاة التي عرف ضمن ما عرف عنها أنها ابنة أحد السكان ، وأنها فتاة عفية الشمائل ، جمة الأدب ، موفورة الاحترام ، فهام بحسنها ، وأكثر من المرور أمام تلك الدار ، علّه يلمحها داخلة إلى الشقة ، أو خارجة من دارها ، ولكنه لم يظفر بطائل .

وظلت محاولاته حتى يئس من رؤيتها ، فانقلب حبه إلى رغبة أكيدة في الزواج منها ، وهو الذي كان ألد أعداء الزواج الراغبين عنه .

وبعث من أقاربه رسلا مهدوا طريق التعارف ، ثم اتصل برب العائلة ووفق إلى أن يكون خاطبًا ، وقدم في جلسة خاصة عربون الخطبة ، وتمكن في هذه الجلسة من رؤية فتاته في ثياب منزلية أخرى تملأ العين بما أفاض الله عليها من جمال وقسامة واحتشام .

شغل صاحبنا بفتاته ، وانبعثت في نفسه مسالك التفكير فيها ، فأراد أن يكون على صلة بها ، متخذًا من الخطبة مؤيدًا لرغبته ووسيلة لطلبته . فذهب في أمسية اليوم التالي إلى دار الفتاة وطرق باب مسكنها ، فاستقبله خادم السكن ليرى ما يريد . لكنه أراد الاندفاع داخله قبل أن يجيب على تساؤل الخادم ، فمنعه هذا وثبت وراء الباب ، ثم حصلت مناقشة مسموعة ، انزعج لها أهل الفتاة ، فخرج رب الدار ليرى ما هنالك ، وكانت نظرة كلها دهشة واستغراب !

استجمع رب الدار شعوره واقتاد الشاب إلى حيث يجلس الزائرون ، فوجده زائغ البصر إلى ناحية داخل السكن كأنه يترقب دخول أحد إليه على غير طائل . ولما استدرجه صاحب السكن عرف أنه حضر ليصطحب خطيبته إلى إحدى دور السينما ليقطع بعض الليل في صحبتها !

وازدادت دهشة رب الدار ، وكادت تعلو وجهه علائم الانزعاج ، لكنه كتم ما بنفسه مرة أخرى ، وامتلك زمام شعوره ، ورآها فرصة سانحة لإيقاف الخطيب على أمور لم يكن يعرفها ، أو هو يعرفها ولكنه يستهين بها :

إنا كمصريين مسلمين نشأنا على أساليب تغاير ما نشأ عليه الغربيون ، ولقد قضيت من العمر ما ترى وسمعت من كثير ممن جالستهم ، كما عرفت من اطلاعي ، أن كل اختلاط قبل عقد الزواج كثيرًا ما يؤدي إلى خسائر أدبية ومادية ، وأظنك يا بني توافقني على ما ذكرت .

ثم هناك شيء آخر أحب أن أذكره لك صراحة . ذلك أن « الخطبة » و « الشبكة » لا تبيح رؤية الآنسات أو السيدات حتى يتم الارتباط . وإذا كان الناس قد اتخذوهما وسيلة للاختلاط والتزاور ، فإن نشأتي وإيماني وحرصي ، كل أولئك يدفعني إلى عدم مجاراتهم ، لأنني أشد تمسكًا بالتقاليد ما دام فيها حفظ الكرامة والشرف .

قبل أن يتم العقد ، أرجو أن تكون زيارتك باتفاق سابق من جهة ، ومن جهة أخرى تكون غير طامع في رؤية أحد غيري ، ثم لا أكتمك أني أنام مبكرًا لأصحو مبكرًا !

فما رأيك في قولي ؟.

أصغى الشاب باهتمام إلى قول رب البيت وأجاب أخيراً عن تساؤله بالموافقة على ما أدلى به ، ثم استأذن وانصرف.

مضت شهور ثلاثة ، تمت أثناءها مقدمات الزواج ، وفي الليلة التي حددت للعقد أقام آل العروس وليمة دعوا إليها محبيهم وأقاربهم ، كما دعا إليها الزوج أصدقاءه وزملاءه . واحتوى هذا الجمع سرادق فسيح ، علقت في أنحائه الزينات ، وفرشت أرضه بالبسط ، وصففت فيه المقاعد المذهبة الوثيرة ، وصدحت الموسيقى بالألحان.

وكان آل العروسين يغدون ويروحون بين جموع الحاضرين محيين مرحبين ، تبدو عليهم دلائل الانشراح والسرور والأمل الحلو بالمستقبل المنشود.

وبينما كان الشاب يجالس أحد الحاضرين أشار إليه بعضهم ، ووضع في يده ورقة . فما قرأها حتى امتقع لونه وارتعشت يداه ، حتى خيل لمن كانوا ينظرون إليه أنه قد فوجئ بمصاب ، أو نزلت به كارثة.

وقد دفع هذا المشهد الشاذ إلى التهامس والتخمين ، حتى نبه بعضهم أخاه إلى هذه الحالة ، فذهب إليه متسائلاً : ما أصابه ؟ ولكن الشاب لم يجب ، بل ألقى إلى أخيه تلك الورقة ، فكان شأنه شأن أخيه ، فزاد تهامس الناس ، وكثرت ظنونهم ، واندفع إلى الأخوين بعض الأقربين لهم يتساءلون عن هذا النبأ المفظع !

تنوقل هذا الخبر ، وانتحى الشاب ناحية مع أقربائه وأصدقائه ، واتخذوا في السرادق مكاناً قصياً يتحدثون ويتناقشون . فتساءل رب الفتاة : ما الخبر ؟ . فاندفع إليه الشاب في شبه ثورة ودفع إليه ذلك الخطاب ، وعيناه يكاد الدم يتفجر منهما قائلاً : اقرأ . فأخرج الرجل منظاره من جيبه وألقى نظرة باحثة على الورقة المذكورة ، ووقف على سر ذلك الانزعاج ، ولكنه بدلاً من أن يشاركهم في انزعاجهم ألقى على مجموعهم نظرة ساخرة وقال :

— أهذا كل ما في الأمر ؟

فأجاب الشاب :

— وأي شيء يفوق هذا ؟.

فقال الرجل بهدوء :

— ليس هذا شيئاً يا بني ، ومع ذلك فاتبعني أنت ومن يهمهم أمرك إلى حجرة أخرى

فلما استقر بهم المكان قال رب البيت للشاب :

— أتعلق أهمية كبيرة على نتيجة هذا الخطاب إن كان حقاً ؟

أجاب الشاب : كل الأهمية ، بل كل ما كبر الفتاة في عيني.

قال رب الدار : إذاً فاسمعوا .

كل ما في الأمر أن هذا الفتى يريد الفتاة لما هي عليه لا لما منحه أبوها أو أمها ، وأنه كان يريد زوجة تقوم على إسعاد نفسه ، ويرى فيها مؤنساً ومشاركاً ، وأنه يكون رجلاً يحمي ذمارها ويعمل على توفير سعادتها ، وأن يكون غير طامع في الزوجة أو أقاربها بما قد يكون لهم من جاه أو مال أو ما قد يكون في يدها هي منه . ثم ذلك ما كنت أفهمه حتى هذا المساء .

غير أن هذا الحادث الذي تسامع به الناس وأفرطوا في تفصيله ، وغلوا في نقله ، وضخموا في شأنه ، غير من تقديري ، وخيب ظني .

وقبل أن أحدثكم كلي أحب أن أخبركم بشيء له أهميته . بل هو الحقيقة في الموضوع .

ذلك أن فتاتنا كان أبوها عليه رحمة الله هو فلان . . . ووالده هو فلان . . . . . وهم على ما يعرف عنهم من أعيان بلدهم وأشراف قومهم ، وبعد أن مات والدها اقترنت

والدتها الفاضلة ، وكانت فتاتنا هذه طفلة صغيرة ، فنشأت في بيتي لا تعرف لها أبا غيري ، وكنت قبل ذلك لم أعقب ولا أزال ، فحمدت الله على أن جعل لنا هذه الفتاة مكان ما قد يكون لنا من أولاد .. فنشأتها تنشئة أحمد الله عليها ، وكانت بي برها وعطفها ، وهي عندي كل ما أعتز به بعد والدتها .

ولقد رأيت حينما أشرفت على الزواج أن أرضي ضميري ، فكتبت باسمها ما أملك وسجلت ذلك رسميا مكافأة لها على برها بي وحبها لي ، وكان أسعد يوم عندي هو أول هذا الشتاء ، لأني كنت أعتبرها ربة دار وزوجة رجل وأم أولاد ، فكانت تتحقق هذه الخيالات .

أما الآن ، والآن فقط ، فقد تهدم بعض أملي ، وإن كنت سررت بما تكشف لي من هذا الشاب .

وهنا تقلص وجه الرجل ، وانقبضت أساريره ، واغرورقت عيناه بالدموع ، واحتبس في حلقه وقال بصوت حاد :

— ما الذي ينقص من قدر الفتاة إذا كانت حسناء عفيفة كاملة مؤدبة ، تعرف شئون بيتها وتحافظ على كرامتها وكرامة أهلها ؟

وهل قضت مدنية هذا الزمن على اليتيمات أن يحرمن من الزواج ؟

وهل إذا عدمت الفتاة الأب أو الجاه تقضي عليها مهما كانت مؤدبة عفيفة ؟

إن هذا منطق غريب ، وفهم معكوس الواقع ! والحقيقة هي أن هذا الشاب غره مظهري وجمع من أشياء أطمعته في ، وكان يعرف أني والدها الوحيد كما هي وارثتي الوحيدة . فلما تسرب إليه خبر وفاة والدها من حاقد أو عدو ، هاله ما أنا فيه منه ، واعتقد خطأ أنه أصيب بنكبة . هذه هي الحقيقة ، وهذا هو موضوع السر فيما ذهب إليه .

والآن ها هو كل ما عرفته ، ولم يبق لك عندي ما تطالب به ، ولم يعد بيني وبينك علاقة .

عند ذلك حاول بعض أقارب الشاب تهدئة الرجل أو تحويله عن عزمه ، ولكنه صمم في حزم وأبى في شدة ، فخرجوا جميعاً يتعثرون في سيرهم مطأطئي الرءوس .

وظلت الموسيقى تصدح دون أن يحس إنسان أن هناك صرحاً قد تهدم ، وزوجية قد انهارت . .

البلاد العربية

ماضيها القريب وأمانيها

ملخص عن مقال بقلم الأستاذ جب

أستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد

تمتد البلاد العربية التي يتكلم عليها المؤلف في هذا المقال من الطرف الجنوبي الشرقي لجزيرة العرب إلى ساحل شمال أفريقية الغربية المجاور للمحيط الأطلنطي ، ويبلغ امتدادها بين هذين الطرفين نحو خمسة آلاف ميل ، وتشمل في آسيا : جزيرة العرب ، والعراق ، والشام ، وفلسطين ، وشرق الأردن ؛ وفي أفريقية : مصر ، وطرابلس ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش . ومساحتها كلها نحو ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، أي أكبر من مساحة الولايات المتحدة ، ويزيد سكانها على ٥٠ مليونا .

وفي هذا المقال يصف الكاتب الصلة الوثيقة التي نشأت بين العرب وهذه البلاد العربية ، والثقافة المشتركة العربي والقومية العربية . والكاتب من كبار المستشرقين ، وصاحب مؤلفات عدة في تاريخ العرب وثقافتهم وآدابهم .

تحديد العرب :

تجمع الشعوب العربية كلها ذكريات تاريخية مجيدة ، أهمها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم سكان جزيرة العرب بدوها وحضرها إلى دين جديد ، هو دين التوحيد . وقد أنشأ النبي في عام ٦٢٢ دولة صغيرة لم يكد يمضي على إنشائها ثمانون عاماً حتى اكتسحت جيوشها كل البلاد الممتدة من سفوح جبال الأفغان إلى ساحل المحيط الأطلنطي . وكان العرب أينما ذهبوا صهروا الشعوب المغلوبة ونشروا بينها لغتهم ودينهم إلا قليلا منها ، ومن هذا المزيج نشأت أمة عربية كبرى جديدة ؛ فإذا سأل سائل : إذاً من هم العرب ؟ لم يكن لسؤاله إلا جواب واحد صحيح أو قريب من الصحة من الوجهة التاريخية . وذلك الجواب هو : « إن العرب هم كل أولئك الذين يدور تاريخهم حول رسالة النبي وذكريات الدولة العربية ، والذين يعتزون فوق ذلك باللسان العربي وتراثه الثقافي المشترك بينهم جميعاً » . أولئك هم العرب وإن خالف ذلك رأي علماء الأجناس البشرية .

وقد ظل العرب بعد زوال مجدهم القديم إلى أوائل القرن التاسع عشر يعيشون على هذا التراث الثقافي الإسلامي ، لا يعرفون إلا قليلا من تطور أوربة السياسي والاقتصادي ، ويظنون « الفرنجة » أقواماً من الكفرة نزل السلطان لهم عن مزايا تجارية في بعض ممالكهم . ثم تنبهوا من نومهم فإذا بهم يرون أوربة تتدخل في أمورهم تدخلا أقلقهم وأقض مضاجعهم ، ورأوا هؤلاء الفرنجة يحيطون بالبلاد العربية من الشرق ومن الغرب ، ويعلنون إرادتهم على حكامهم وعلى ممالكهم ، ووجدوا جيوش الفرنجة تحتل بلادهم ، وقناصلهم وتجارهم ومستعمريهم يتدخلون في شئونهم العامة وحياتهم الاقتصادية .

ولم يشهد القرن التاسع عشر من وجهة نظر العرب إلا تدخلا متزايداً من جانب الأوربيين في شئون العرب ، وتقلقلا متزايداً في نظامهم القديم وجهوداً يبذلها المثقفون منهم في الكشف عن سر نجاح أوربة وأسباب ضعف العرب ؛ وكان أشد ما آلمهم في أثناء ذلك أن يروا أولئك الأوربيين يحتقرونهم ويحتقرون كل ما يتصل بهم ، وهم أولئك الذين يرون في الإسلام خير ما أوحى إلى العالم وأصدقه ، ويرون أنفسهم خير أمة أخرجت للناس .

وكانت هذه النظرة المؤلمة التي تجرح عواطفهم وتؤذي كرامتهم هي التي أكثرت النزاع فيما بين العرب والأوربيين أكثر مما أثارته الانقلابات السياسية والاقتصادية في بلادهم .

ولاح أول الأمر أن سيل الغرب الجارف سوف يكتسح كل ما أمامه . وكانت كثرة العرب لا تشعر إلا قليلا بالانقلابات التي كانت تحدث من حولها ، ولكن أجيالا جديدة تخرجت في المدارس التي تديرها الهيئات الغربية أو التي تقوم على الطراز الأوربي ، وخرجت إلى حياة عامة نظمها ومثلها العليا مستعارة كلها أو جلها من الغرب . وأكثر من هذا وذاك أن صحافة جديدة قد نشأت في البلاد العربية . وبثت هذه الأفكار الجديدة في طول البلاد وعرضها ؛ فنشأت من ذلك ومن الاتصال المستمر بالغرب عقلية جديدة لا تأتلف مع النظام الاجتماعي والديني القديم . ولم تخل بعض هذه النظم الجديدة من عيوب . ومع أن هذه النظم كانت بعيدة كل البعد عن الكمال المرجو ، وخاصة في البلاد التي كانت تحكمها استانبول ، فإن الرجوع إلى النظم القديمة في الأمور السياسية على الأقل أصبح غير مستطاع .

لكن هذا الغزو الأوربي [illegible] الشئون الروحية العميقة مثار النزاع [illegible] يتزايد جيلا بعد جيل . ذلك أن الغرب قد فتح ميادين جديدة أمام الشبان وأولي النشاط والطموح ، وكل من يعتد بنفسه أو يميل للإصلاح والتجديد . غير أن نزق الشبان وقلة خبرتهم ، وما كان يظهره بعضهم من عداء أو احتقار للنظم القديمة ، قد أفزعت طائفة أخرى كبيرة سرى في نفوسها خوف حقيقي مما عسى أن تنتجه النظم والأفكار الغربية من آثار اجتماعية وعقلية لا تلائم البلاد العربية . وقد نجح هذا الخوف حتى الآن في منع تيار الغرب الجارف من أن يكتسح كل النظم العربية القديمة اكتساحا تاما . غير أن النزاع لا يزال قائما بين النزعتين المختلفتين : النزعة الغربية الحديثة ، والنزعة الإسلامية العربية القديمة . وهذا النزاع يؤثر تأثيرا قويا في حياة الشعوب العربية . وليس ثمة ما يدل على أنه قد خبت ناره . ولكن مهما يكن من أمر هذا النزاع فإن شيئا واحدا لا ينكره كلا الفريقين ، ذلك أن الاتصال بالغرب أيقظ العرب من سباتهم الذي لازمهم طوال العصور الوسطى ، فعاد إليهم شعورهم بقوميتهم واعتدادهم بأنفسهم ، ونما هذا الشعور نموا بطيئا أول الأمر ثم أخذ يقوى ويتسع مداه ، ويوحي إليهم بما يبذلونه من جهود ، لكيلا يستسلموا إلى قوى الغرب الروحية والمادية .

البدو والحضر :

كان العرب ولا يزالون منقسمين إلى قسمين : بدو وحضر ، وإلى طائفة ثالثة تشتغل بالزراعة بين البداوة والاستقرار . وكان أهل المدن في كل الأوقات هم الذين يصرفون أقدار العرب السياسية ويحملون لواء الثقافة العربية .

[illegible] البدو كانوا في الدوام معينا لا ينضب ، يستمد [illegible] من الإحصاء قوى جديدة يستميتون [illegible] أهل الحواضر وخارت عزائمهم . لكنهم إذا تركوا وشأنهم كانوا عنصرا من عناصر الدمار ، يحسدون أهل الحواضر في أمنهم وثرائهم ؛ فكانت الجماعات المستقرة والحالة هذه أشبه بواحة من المدنية لا تنفك تقاوم ضغط البدو عليها وتسربهم في داخلها ، فتفلح في ردهم أحيانا ، ويطغون عليها أحيانا أخرى .

وفي وسعنا أن نقول بوجه عام إن البدو ظلوا إلى أوائل القرن التاسع عشر هم الغالبين ، يغيرون على الحواضر ، ويفلحون أحيانا في تدمير ما فيها من آثار الحضارة خارج المدن المسورة ، فيحطمون قواها الاقتصادية ويفقرون حياتها الزراعية .

ثم تبدلت الحال في القرن التاسع عشر حين أنشأ محمد علي في مصر حكومة مركزية قوية قطعت أوصال جماعات البدو شبه المستقرة في حوض النيل ، وقضت على دولة

الوهابيون ؛ واستنفدت الدولة العثمانية بهذا السبب، فيما بعد، حتى تقلصت جيوشها على المد الأوربي. وكان في الحقيقة شيئاً قليلاً يستطيع الإنسان أن يدرك قدره إذا عرف مقدار الجهود والضحايا التي بذلتها فرنسا — وهي أكثر من تركيا قوة وأحسن نظاماً — في تهدئة إقليم الجزائر والاستيطان فيه بعد أن احتلته في عام ١٨٣٠.

على أن خطر البداوة على الحضر لم تؤمن مغبته إلا بعد الحرب الكبرى الثانية.

وقبل أن ننتقل إلى الكلام على كل صقع من الأصقاع العربية بمفرده، نقول إنها كلها تشترك في بعض الأمور الهامة: أولها ذلك الأمر الغريب الذي يبدو في حقيقته من التناقضات، وهو أنها كلها وارثة لمدنية راقية غنية بتقاليدها الروحية وثقافتها العقلية، ولكنها كلها لم يمض على خروجها مما كانت فيه من ضعف سياسي واقتصادي بل وخلقي إلا وقت قصير، وكلها تواجه مشكلة من أخطر المشكلات وهي: كيف تنشئ من جديد أمة قوية الدعائم؟

وثمة ظاهرة أخرى تشترك فيها البلاد العربية كلها، وقد كانت لها آثار اجتماعية وسياسية هامة، ومنشؤها سياسة التسامح التي جرى عليها المسلمون في أثناء فتوحهم الأولى، وقد أدى ذلك التسامح إلى بقاء أقليات جنسية ودينية في البلاد العربية. وزاد الأمور تعقيداً ما نشأ في البلاد العربية نفسها على مر الزمن من انقسامات تتصل أسبابها اتصالاً وثيقاً بالأسس التاريخية التي قامت عليها الحركة العربية، وهي من أجل هذا عقبة في سبيل الجهود التي تبذل في سبيل لم شعث العرب وإزالة الشحناء من بينهم. ولا يتسع المقام لتفصيل أسباب هذه الانقسامات؛ وحسبنا أن نذكرها ليعرف القارئ أهميتها. ففي العراق شيعة وسنيون وأكراد وعرب، وفي الشام دروز وإسماعيلية، ولكل طائفة من هؤلاء خصائصها وتقاليدها. وفي جزيرة العرب نفسها بقية من الخوارج، وفيها الوهابيون، وفي بعض البلاد الإسلامية أقليات أخرى مسيحية ويهودية. ولهذه الفروق الدينية والمذهبية والجنسية أثرها في المشكلات السياسية والاجتماعية التي تواجه البلاد العربية في الوقت الحاضر. نعم إن في هذه البلاد شعوراً حقيقياً موحداً نحو المسائل السياسية الخارجية، ولكن هذا الشعور الموحد لا يكون له إلا أثر أو هو غير قوي في المسائل الداخلية. وقد تكون الاختلافات الدينية في هذه الحال أقل شأناً من التقاليد الموروثة، والعادات التي تمتاز بها كل فئة من هذه الفئات المختلفة؛ وحسبنا هذا عن البلاد العربية بوجه عام، ولننتقل إلى الكلام على كل بلد من هذه البلاد على حدة:

مصر

تحتل مصر في البلاد العربية مكانة الأخ الأكبر. وأهلها لا يقلون كثيراً من حيث عددهم عن سكان البلاد الأخرى مجتمعين. وقد فاقت سائر أخواتها في رقيها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، مع أنها لم تكن في أول القرن التاسع عشر إلا بلداً مضطرباً فقيراً لا يزيد سكانه على ثلاثة ملايين. وأهم العوامل التي ساعدت على هذا الرقي سبقها إلى الاستقلال في شئونها الداخلية من الدولة العثمانية، واستخدامها رءوس الأموال الأوربية والنشاط الأوربي في استثمار مواردها. ولم تبدأ مصر — إلا أخيراً — باستثمار مواردها المعدنية والزراعية في الصناعة. وسيكون هذا المورد الجديد من موارد الثروة أكبر ما تعتمد عليه في المستقبل لحل مشكلة سكانها المتزايدين. وهنا لابد أن نشير إلى مشكلة أخرى سيكون لها شأن أيما شأن في المستقبل؛ تلك هي مشكلة رءوس الأموال الأجنبية. لقد كانت

هذه الأموال عماد رقى مصر الاقتصادى فى العهد الأخير ، ولكنها قد اقترن بها فى عقول المصريين وغيرهم من أهل البلاد العربية معنى مشئوم ، ولذلك صاروا ينتظرون من الحكومة أن تدبر هى رءوس الأموال اللازمة للمضى فى هذا الرقى الصناعى . وقد تنجح الحكومة فى ذلك إلى حد ما ، وقد تجد الصناعة بعض حاجتها فى رءوس الأموال المصرية كما وجدته فى العهد الأخير ، ولكن رقى البلاد فى المستقبل لابد أن يتأثر بوجود التعاون الدولى أو عدم وجوده فى المسائل الاقتصادية الكبرى .

ولم يكن رقى مصر العقلى بأقل من رقيها المادى ؛ وقد سار هذا الرقى أيضاً على نفس الخطة السالفة الذكر ؛ فلم تقطع مصر صلتها بماضيها الثقافى ، بل بنت على أساسه وعدلته بما أدخلت عليه من الآراء والنظم الأوربية . وسرعان ما أصبحت مصر زعيمة العالم العربى غير منازعة فيه ، سواء كان ذلك فى الثقافة الإسلامية القديمة ، أو فى الثقافة الأدبية والعلمية الحديثة ، [illegible] وزاد استمساكها بها بعد عام ١٩١٨ [illegible] وساعدتها صحافتها العربية الواسعة الانتشار فى جميع البلاد العربية والإسلامية .

وقد كان من آثار هذا الرقى المستمر واطرادها المتزايد على نفسها أن قويت فيها الروح القومية بين المصريين ، وتوحدت صفوفهم أمام كل ضغط خارجى ، وإن اختلفوا فيما بينهم فى الشئون الداخلية .

وقد بدأت حركتهم الوطنية منذ عام ١٨٧٨ ، وما زالت تقوى حتى تغلبت على المقاومة البريطانية فى عام ١٩٢٢ ، وانتهى الأمر بتسوية النزاع القائم بين الدولتين بمعاهدة التحالف التى عقدت فى عام ١٩٣٦ .

ويمكن القول أن رقى مصر قد قام على عوامل ثلاثة هى : تجديد قواها الاقتصادية تجديداً مستمراً بمساعدة رءوس الأموال الأجنبية ، وتساعها الكبير فى شئون التربية والثقافة الذهنية تساعاً كان من آثاره أن نشأت طبقة وسطى مستنيرة متعلمة . والعامل الثالث هو نمو الروح الوطنية فى جميع أهلها على اختلاف طبقاتها . ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن مصر كانت تمتاز من هذه الناحية على غيرها من البلاد العربية ؛ فقد بدأت تقدمها وهى وحدة متجانسة من النواحى الطبيعية والثقافية والاقتصادية . نعم إن فيها أقلية صغيرة من الأقباط المسيحيين ، ولكن لا شك فى أن الأقباط والمسلمين متحدون فى المصالح والأغراض ، وأن الاحتكاك بينهم ضئيل لا يستحق الذكر ، وأن وحدة الأمة فى الحقيقة لا تقبل الانفصام .

على أن هذه الميزات التى تمتع بها مصر ، وهى وحدتها وكفايتها الذاتية ، ونهضتها الأدبية والمادية ، كل هذه قد أوجدت فيها نزعة تختلف كثيراً عن نزعة غيرها من البلاد العربية .

ولا شك أن أكبر ما يهتم به المصريون هو شئون مصر نفسها ، [illegible] إليها على أنها وحدة مستقلة منفصلة عن سائر البلاد العربية ، وإن كانوا لا ينكرون ما بينها وبين هذه البلاد من صلات القرابة التى تبعث فيهم الاهتمام بما يصيب هذه البلاد من خير أو شر ؛ وفى المصريين طائفة كبيرة تهتم بإحياء مصر وإعادة مجدها أكثر مما تهتم بذكريات الدولة العربية ، وترى مجد رمسيس لا يقل شأناً عن مجد العرب القديم ؛ فهما فى نظرهم عنصران متساويان على الأقل فى تراث مصر القديم .

وقد تعدل هذه النزعة تعديلاً كبيراً فى أثناء الصراع العالمى القائم فى هذا الوقت . ومهما تكن نتيجة هذا التعديل فإن العلاقة التى ستنشأ بين القومية المصرية والقومية العربية ستكون من العوامل الهامة فى مستقبل الشرق الأدنى والشرق الأوسط .

(له بقية)

محمد جبران

حبى . . .

طيفُ أحــلامى ودنيا ذكرياتى
وشقــائى كلما لمتُ حياتى
بلغ اليــأسُ من النفس مُنى
أحرقتْ فيضَ عيون العــبرات
كنتُ أستشفى بهـــا فى لوعتى
ثم جفّتْ فاحترقتْ حسراتى
صرتُ معنى فى فؤادى خافقًا
حائرًا يخطر بين الجنبـــات
يهدأ الكونُ ولا يدرى له
طرفٌ عين أىّ شط الفلتات
ونحــدّثنا : أتبغى من [illegible]
أم جرى [illegible]
ها هو الليـــل أناجى [illegible]
دامى النجوى ضـــلال الومضات
وروض لا أرى فى نحـــره
نفحـــة الصبح وضوء القسمات
قد نسيت الحبَّ إلا لمحـــةً
من سنا معناك حلو اللحظات
هى صبحى وهى أنوار الضحا
وهى شمسى فى الدجا والظلمــات
وإذا لفتتْ أزاهـــير الربا
بنتُ معنـــاك حياها لفتات
وبأذنى نداء هـــاتف
دائم الفرحة حالى الــرنات
يملأ الدنيـــا هتافًا صارخًا
وأنا السامع صوت الفرحات
مثل صـــوت الرعد فى جلجلة
لم تكن من نسج ألفاظ اللغات
وأنا المعنى له أفهمـــه
هو وحيى فى رواحى وغـــداتى
وهو شيطانى الذى ضــــلّلنى
وهو فى التوبة محراب صـــلاتى

***

أىُّ أيامـــك مُرٌّ ذكره !
كان مرُّ الحب حلو اللحظات
[illegible]ـــــق إلى سلطانه
وإلى آهاته والزفـــــرات
[illegible] ما أعذبه !
[illegible] إلى الفكر وأقوال الوشاة
فقـــد حتى صار عندى مثلما
فقـــدتْ نفسى جميع الكائنات

عبد العزيز سيد الأهل

النـــدى

أدموع العاشق فى الأســـحار
ينسكبن « الأزهار » للأزهار !
أم دموع الآفاق يفضن الفجـ
ـر لئلا يخفى ابتسام الدرارى ؟
يا ندى أنت والزهور حسـان
وكئوس ، حلى البديع البارى

يا ندى أنت ظلمة الفجر حولى
كذبونى ، وأنت كاستغفارى

يا ندى ما الذى يروعك حتى
تتلاشى أمام وجـــه النهار ؟

ما رأينا « الجمان » قبلك يوماً
يتلاشى على وميض « النضار »

يا ندى خف مسمعى فى خفوقى
فتريت أطفالك فى أشـــعارى

وتمالك أثرك فوق روائى !!
حب حتـــى أغرى به أطيارى

كل در فى النظم يبـــدو جميلا
وجمال النـــدى لدى الأنظار

شاعر الراوى

إلى شاعرة الفرس

إلى صاحبة الفن الآية العبقرية وشاعرة الفرس المأسوف على شبابها بروين اعتصامى

رفرفى فى الخـــلود بين طيوره
واشربى من ندى الجمـــال ونوره

وأعيـــدى على الكواكب شعراً
طرب الكون من رقيق شعوره

واتركى دفتر العواطف للأملا ك فالسحر كامن فى سطوره
ريشة الفن دبجته بلون فتن الناظرين فى تحبيره
وتجلت آياته بينـــات آمن العارفون فى نشوره
آية المرأة الأديبة فى الشـ ـرق وبرهان الشرق فى تفكيره
أظهرت فتنة الأنوثة فى معـ ـنى يحار الرجال فى تفسيره

حرت فى فكرك الخصيب وما
جاد به العقول فى تصـــويره

أمعانى الحياة وهى محيط غرق الفكر طامياً فى بحوره
كيف صورتها بكل قصيد ساحر فى بيانه وبحوره ؟
وقفت دون ذلك فلسفة اليو نان حيرى تشق إلى تقريره

* * *

زهرة الفرس ليت شـــعرى أبكى
روض إيران فقد أذكى زهوره ؟ !

قد تمنى الذبول فيك وما زا ل طرياً فى حسنه ونضيره

* * *

ربة الفن عز أن يفقد الفن شباباً قد لاح بين قشوره
جدتيها أنغام عودك حتى ما سكرنا على سوى شحروره
وتقطفت عاد الأمل الساحر الهوى فى روضه وغديره
[illegible] على نبتك ينتظر أطفالها بشوق نظيره
[illegible] عام تبقى فى الدهر حتى عصوره

محمد جمال الهاشمى

صاحب المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
* * *
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك	[illegible]	فى مصر والسودان
	[illegible]	الطلبة ومعلمى الإلزام
ستة أشهر	[illegible]	فى الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
	[illegible]	فى الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العـــدد [illegible] مليمات

أنباء وآراء

كتب جديدة

١ — قانون الحرب

للدكتور محمود سامي جنينة
أستاذ القانون الدولي العام بكلية الحقوق

مجموعة البحوث التي ألقاها الأستاذ على طلبة قسم الدكتوراه بكلية الحقوق، وتتضمن البحث في مشروعية الحرب، والقيود الواردة عليها، والقواعد المنظمة لها، وأثرها في حقوق الدول المحاربة قبل الأشخاص وقبل الأملاك، وباقي الآثار المترتبة عليها.

والكتاب بحث واف في هذه الموضوعات الحية التي تشغل الأذهان الآن، وقد كتب بأسلوب [illegible] واستشهد فيه مؤلفه بأحداث [illegible] وما وضع بين الدول من معاهدات.

ويقع في ٣٤٠ ص وطبع بمطبعة نوري.

٢ — اشبنجلر

للأستاذ عبد الرحمن بدوي
المدرس بكلية الآداب

عني الأستاذ عبد الرحمن بدوي، بوضع سلسلة في خلاصة الفكر الأوربي، أخرج منها حتى الآن أجزاء، وهذا الجزء في فلسفة اشبنجلر الفيلسوف الألماني، الذي عاش من سنة ١٨٨٠ إلى سنة ١٩٣٦ والذي هاجم المدنية الغربية، وأبان عيوبها، وتوقع انحلالها. وقد لخص الأستاذ بدوي في هذا الجزء آراء الفيلسوف في دورة كوبرنيكس، والوضع الروحي — وروح الحضارة، وقوى التاريخ — وقد شرح فيه آراءه بآراء اشبنجلر. وكنا نفضل أن يبدأ بتلخيص آراء اشبنجلر ثم يعلق عليها بما شاء، بل كنا نفضل أن ينقل آراءه كاملة فيما يعرض له، ثم ينقده، فذلك أدل على قيمة المؤلف؛ كما كنا نرجو أن يقدم الكتاب بالتعريف باشبنجلر وحياته وفلسفته ووفاته.

وأيا ما كان فالأستاذ عبد الرحمن بدوي بدأ حياته العقلية في نشاط يدعو إلى الإعجاب ويبشر بمستقبل علمي خصب.

والكتاب يقع في ٣٢٠ صفحة، وقد نشرته مكتبة النهضة المصرية.

٣ — روح الأحاديث المحمدية

للأستاذ محمود علي قراعة

اختار فيه المؤلف بعض الأحاديث النبوية من الكتب الصحيحة، وراعى في اختيارها «الأحاديث التي تجمع المعاني الإسلامية النبيلة، الواجب على المسلم الحق معرفتها، وتلخص مناحي السمو الروحي النبوي التي يجب أن يقف المسلم عليها». وإذا اختلفت رواية الحديث اختار أوضحها وأتمها، واختار من موضوعات الحديث خمسة أبواب: نبينا محمد والأنبياء السابقون — العبادات — الاجتماعيات والمعاملات — الجهاد — الموت وما بعده. وقد كون فكرة من الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد وشرحها، واستخرج العظة منها، ودعا إلى التمسك بمقتضاها.

والكتاب مكتوب بروح دين مؤمن، متحمس للفكرة داع إليها في حرارة وقوة، متأثر بالغزالي في منحاه ووعظه. وهو يطلب من «مكتبة الجامعة» ويقع في ٥٥٠ صفحة.

ذكريات ملك

صدر في إنجلترا أخيراً كتاب عن «الملك جورج الخامس» بقلم المستر جون جور، يحوي دراسة تاريخية عن عهد ملك إنجلترا السابق.

والجديد في هذه الدراسة الطريقة التي كتبت بها، لم يستعن المؤلف بشيء قدر استعانته بيوميات الملك جورج الخامس الخاصة، ذلك أنه ثبت أن الملك الراحل كان يدون يومياته بنفسه يوماً بعد يوم منذ الثانية عشرة من عمره. وكان يدونها بطريقة واضحة وأسلوب رائع، وفي صراحة قلما تحفل بها المذكرات؛ فهو يبدي رأيه في كل ما حوله، ويعرض آراءه الشخصية في المشكلات الخطيرة التي عرضت إبان حكمه.

ويقول المستر جور عن هذه اليوميات إنها «مكتوبة بإيجاز واضح، وبدون أي تنميق، [illegible]». ويشير إلى ما قصد في هذه الدراسة بقوله: «لقد حاولت أن أبعد عن دراستي الاعتماد على التراجم الملكية وأحاديث البلاط، وتلك القصص التي يشجعها حب التقرب من الملوك، واجتهدت أن أظهر الملك السابق بثوبه الحقيقي، الرجل الصريح، البسيط، الأمين؛ وتركت له وحده أن يتكلم، سواء بلسانه، أو بأعماله».

وقد عاونت الملكة ماري في إخراج هذا الكتاب، فراجعت أصوله، وحققت بنفسها صحة بعض الوقائع التي وردت فيه.

الكتاب في الحرب

بين الظواهر الواضحة في هذه الحرب أن الكتاب يقومون فيها بنصيب كبير؛ ففي الساسة والقواد كثير من الكتاب الذين ساهموا في التأليف، وغير هؤلاء توجد أعمال أدبية بحتة لا تقل شأناً في إدارة أداة الحرب من الساسة والقواد...

فأول هؤلاء الكتاب المستر تشرشل رئيس وزراء إنجلترا، فهو معدود كمؤرخ وكاتب تراجم من الطراز الأول، ثم المستر ج. ب. بريستلي الكاتب المعروف، والسر روبرت فانسيتارت المستشار الدبلوماسي الأول في إنجلترا، وكلاهما يقوم بالدعاية لبريطانيا ولقضيتها في الحرب.

ويأتي بعد هؤلاء الكتاب الذين يديرون دفة السياسة المحاربون من المؤلفين، وعلى رأس هؤلاء يوضع الجنرال ويفل قائد جيش الشرق، فعلاوة على كتابه في ترجمة اللورد اللنبي، الذي لاقى من الترحيب بين النقاد كل نجاح، والذي قال عنه جون روق الناقد المعروف: «إنه نموذج رائع لما يجب أن تكون عليه التراجم في الدقة والأسلوب» — علاوة على هذا الكتاب فالجنرال ويفل كاتب ممن تردد اسمهم على صفحات التيمس كثيراً، فقد نشر له أكثر من بحث، وقد جمعت بعض هذه البحوث والمحاضرات في كتاب نشر منذ حين. وهو صاحب الرأي القائل: إن التراجم والقصص والدراسات التاريخية قد تكون أكثر نفعاً للقائد من الكتب الحربية التي تشرح خطط الحرب وطرائقها.

وبين الذين يحاربون في مختلف الميادين اليوم مئات من الشعراء والقصصيين المعروفين، يصعب على الكاتب أن يحصيهم، ولن يكشف عنهم الستار إلا حين تنتهي الحرب وتبدو أصداؤها فيما يكتبون.

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — بشارع الكرداسي رقم ٩ عابدين . مصر